مدرستا أهل القرآن واقرأ لتعليم القرآن الكريم

ولاية سمائل – وادي بني رواحة

مقرر المسابقة الثامنة عشرة

تفسير القرآن الكريم
الجـــزء الثامن عشر

من كتاب
الإبريز في تفسير كتاب اللّه العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية

/https://areejquran.net

دعــوة من القلب

لأننا نحبكم في الله فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين الله تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي، أو الدعم المباشر للمبنى الوقفي، والبرامج التعليمية للمدرستين وذلك من خلال التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١ ـ ٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عز وجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

تفسير الجزء الثامن عشر

تفسير سورة المؤمنون

سورةُ المؤمنون مكّيّةٌ كلّها، سمّيت بذلك تخليدًا لشرفِ أهلِ الإيمان الذين اختارهم الله لنصرةِ دينه وحماية شريعته،[1] وشاعت تسميتُها عند القرّاء باسم "قد أفلح" وسورةُ الفلاح، عددُ آياتها مئة وثمانيَ عشرةَ آيةً، وقد نزلت قبل سورةِ الملك وبعد سورةِ الطّور.

افتتحت السّورة بالإشادةِ بالمؤمنين ذاكرةً جملةً من خصالِهم، ثمّ تطرّقت إلى أطوارِ خلقِ الإنسان منبّهةً إلى حقيقةِ البعثِ ومشيرةً إلى عظمةِ الخالقِ من خلال بسطِ آياتٍ كونيّةٍ، ثمّ عرجت إلى الحديث عن دعوةِ الرّسل نوح وهود وموسى وهارُون وعيسى مع أمّه -عليهم السّلام- على سبيل تسليةِ الرّسُول ﷺ ممّا كان يجده من قومه، وفصّلت الحديث في مجادلةِ المشركين؛ مبيّنةً الهدف من هذهِ الحياةِ وأنّهم لم يخلقوا عبثًا بل لغايةٍ عظيمةٍ، وفي خواتيم السّورةِ بيانٌ للمصيرينِ اللّذين لا ثالث لهما وما يجدُ كلُّ فريقٍ فيهما.

١. ذكرُ المؤمنين وسبب فلاحِهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾.

---

[1] المؤمنُون في الصّبح، حتّى إذا جاءَ ذكرُ موسى وهارون -أو ذكر ﷺ وقد وردت تسميتها في السّنّة؛ فعن عبد الله بن السائب، «قرأ النّبي عيسى- أخذته سَعلة فركع». رواه البخاري، كتاب: الأذان، باب: الجمع بين السورتين في الركعة، ر: ٧٧٥، (١/١٥٤).

لَمّا كان في خواتِيم سورةِ الحجّ نداء لأهلِ الإيمان يحثّهم على مكارِم الأعمال لعلّهم يُفلحون ناسبَ أن يجيء في مطلع السّورةِ بعدها ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حقًّا لقد فازَ المؤمنون، وهو استهلالٌ بارعٌ يفيضُ إيجابيّةً ويتدفّقُ تحفيزًا للنّهوض بأسبابِ الفلاح، وعبّر بالماضي مستعملاً "قد" مبالغةً في التّحقيق، وخلوّ فعل الفلاح من متعلّقٍ يقتضي أنّهم أفلحوا فلاحًا كاملاً بكلّ خيرٍ رغبُوا فيه، واختيارُ عنوان الإيمان لهم دلَّ على أنّهُ سببُ فلاحهم، ورُويَ عن عمر بن الخطّاب أنّه قال: "كان النّبي ﷺ إذا أُنزِل عليه الوحي سُمِع عند وجهِه كَدَوِيّ النّحل فأُنزِل عليه يومًا فمَكَثنا ساعةً فَسُرِّي عنه فاستقبَل القِبلة ورَفَع يديه وقال: (اللّهم زِدنا ولا تَنقُصنا، وأَكرِمْنا ولا تُهِنّا، وأَعطِنا ولا تَحرِمنا، وآثِرنا ولا تُؤثِر علينا، وارضِنا وارضَ عنّا)، ثم قال ﷺ: (أُنزِل عليّ عشرُ آياتٍ، مَن أَقامهُنّ دَخَل الجنّة)، ثمّ قرأ: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتّى خَتَم عشر آيات.[٢]

ثمّ يفصّلُ في أبرز خصالِ المفلحين التي هي ترجمةٌ لإيمانِهم الصّادق: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الذين يؤدُّون صلاتهم على خشوعٍ تامٍّ، والخشوعُ في الصّلاة: سكونُ الجوارح وتفرّغُ القلبِ للذّكر، وبدأَ بالصّلاةِ إيذانًا بشرفِها الأعظم حيثُ إنّها مناجاةٌ لربِّ العالمين، واستعمالُ الاسمِ الموصولِ"الذين" في كلّ خصلةٍ إشارةٌ بأنّ كلاًّ منها كان سببًا صَنَع فلاحهم الكامل، وأضاف الصّلاةَ إليهم"صلاتهم" إيماءً إلى شدّةِ ارتباطهم بها، وقدّم لفظ الصّلاة على الخشوع اهتمامًا به وتشويقًا لما سيُخبِر عنه من الخشوع ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ والذين يبتعدُون في كلّ أحوالِهم عن الأمورِ التي لا فائدةَ لهم فيها دينيّةً ولا دنيويّةً، و"اللّغو" الباطل من الأقوال أساسًا؛ وشمل الأفعال بالتّبع، وتصدُّر الإعراض عن اللّغو قائمة خصال المؤمنينَ إشارةٌ إلى أثرِه التّربويّ البالغِ في تقويمِ النّفوس لتتهيّأَ لحملِ التّعاليمِ الدّينيّة، وقيل: في تقديمِ الجارِ والمجرُورِ"عن اللغو" على متعلّقه"معرضون" تلميحٌ إلى أنّ المؤمن شأنُه أن يعرض عن مثل هذا لا عن الحقّ، وعلى شدّةِ ارتباطِ ذكرِ الصّلاةِ بالزّكاةِ في القرآنِ إلا أنه في هذا الموضع ذكر الإعراض عن اللّغو بعدَ خشوعِ الصّلاةِ إيماءً بأنّ الخشوع سببٌ للإعراض عن اللغو ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ والذين يؤدُّون زكاةَ أموالِهم على أتمّ وجهٍ طيّبةً بها نفوسُهم؛ وبما أن سورة المؤمنون مكية وقد ذكرت فيها الزكاة فهذا يدل على أن الزكاة شرعت في العهدِ

---

[2] رواه التّرمذيُّ في سننه، ك: تفسير القرآن، ب: ومن سورة المؤمنون، ر: ٣١٧٣، (١٧٩/٥).

المكّيّ،وفصلت أحكامها في العهد المدني، واستعمل لفظ "فاعلُون" لما يؤذنُ به من التّشمّرِ لأدائها، واللاّمُ في "للزكاة" على هذا للتّقويةِ وهو الأظهر في معنى الآية، ونوّه بالزّكاةِ الماليّةِ في خصالِهم لأنّها مدرسةٌ لتقويمِ تصرُّفاتهم الماليّةِ التي هي مهادٌ لحسنِ معاشرتهم للنّاس، وقيل:اللّام لِلتّعليلِ، والزّكاةُ زكاةُ النّفس بالأخصِّ والتقديرِ: لأجلِ زكاة النفس فاعلُون الصّالحات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ والذين يصونون فرُوجهم لكيلاَ تصل إلى الفواحش؛ أو مع غيرِهم كفاحشة قوم لوط والزّنى وكلّ ما يفضي إليهما من نظرٍ أوكشفٍ أوميوعةٍ وغيرِذلك، وحفظُ الفرجِ أوسع من معنى السّتر لأنّ هتك حرمته ثابتةٌ ولو فوق الثّوب أو من طريقٍ آخر كالتّشهّي ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ حافظون لفروجهم على كلِّ حالٍ إلاّ مع أزواجِهم أو إمائهم، و"ما ملكتِ أيمانُهم" كنايةٌ عن النّساء المتُسرَيات المأخوذات من حربٍ مشروعة مع المشركين؛ ومن تولد منهن بعد ذلك، سمّين بذلك لأنّ شأن المملوكِ أن يُقبض باليد اليُمنى المباركة، والآية ذكرت هذا التّشريع عرضًا وقد فصّل الأفذاذ من العُلماء حكمة التّسرّي وأحكامه، و أنه ليس كما يتصوّرُه الكثير من المسلمين وغيرِهم مشروعا جنسيّا محضا[٣] ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فإنّهم غيرُ معاتبينَ في الاستمتاع بهنّ في حدود المشروع، وأكّد الجملة إبطالاً لأوهامِ السّطحيين بأنّ من زادَ على زوجةٍ واحدةٍ أونحوِذلك من المباح أنّه شهو انيٌّ كما اتّهم بذلك خيرُالبريّةِ ﷺ؛ وليقُوم المعنى العكسيّ بأنّهم معاتبُون أشدَّ العتابِ في غيرمَا أُحلَّ لهم ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ومن طلبَ استمتاعًا جنسيًّا من غيرِطريق الزّواج الصّحيح أو التّسرّي المشرُوع فذلك هو المعتدي على حُرماتِ الله، والصّيغةُ من قصرِالموصوف على الصّفةِ؛ وكأنّه ليسَ ثمّةَ معتدٍ إلاَّ هؤلاءِ، وجاء الكلام في هذهِ المسألةِ أطول لينبّهَ إلى خطورتها في تقويضِ دعائم الإيمان؛ وهي كما يظهرُ من أقوى أسبابِ حفظِ التّربية الاجتماعيّةِ الحضاريّةِ التي تفرّد بها الإسلامُ اليوم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ والذينَ يؤدُّون ما استُودعوه من الأماناتِ إلى أصحابِها ويحفظون العهودَ التي أبرموها لا يُضيّعونها، والآيةُ عامّة شملت حقوق الله وحقوق العباد، والأمانات حسّية كانت كالأموال أو معنويّةً كالأسرارِ بين الخلطاء؛ ولعلّه لتوسّعها هذا وردت بالجمع، وقيل:

---

[3] والظّاهر أنّ الحكمة تقتضي أن يترك الحديثَ عن مثل هذه الأحكام إلاّ في حدود الحاجة الملحّة؛ كيف لا وواقعُها التّطبيقي شبهُ منعدم في عصرناً هذا.

الأمانة بينَ النّاس والعهدُ مع الله، وقرن العهد مع الأمانةِ لأنّه يغلب تولّدُه عنها فالمضيّعُ للأمانة مضيّعٌ لأمرينِ عظيمينِ، وحافظُ الأمانةِ دلّ بخلقه على نفسه العظيمةِ التي تأبى المسّ بالنّفيس الذي لم يُودع عندهُ إلاَّ لكونه نفيسًا عند صاحبِه خاف ضياعه؛ وكذا شأنُ الوفاءِ بالعهدِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ والذين يحرصُون على أداء صلواتهم تامّةً بشروطها وأركانها وأعمالها، والمحافظةُ مفاعلةٌ لإفادةِ مبالغةٍ في الحفظِ، وذكرَ الصّلاةَ بدايةً بالخشوعِ ونبّهَ هنا إلى عموم المحافظة بلفظِ الجمعِ تنبيهًا إلى تعميمِها بالحفظِ؛ وفي تجدّدِ ذكرِها هذا ردٌّ للعجزِ على الصّدرِ ضمًّا للكلامِ وتحبيبًا له مع ما فيهِ من بيانٍ لأهمّيتها بين العباداتِ و أثرِها عليها وعلى دفعِ الموبقاتِ؛ على أنّ آخر ما يُذكر له حظٌّ أوفر من القرارِ في الذّهن، وجاءت الفواصلُ السّابقة اسميّةً"معرضون، فاعلون، حافظون" لإفادةِ الثّبوت وكانت هذهِ فعلاً مضارعًا"يحافظون" لتقريرِ استمرارِهم على المحافظة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ المتّصفون بكلِّ تلك الصّفاتِ أولئك هم الفائزون؛ واستعمالُ اسم الإشارةِ مؤذنٌ بأنّ المذكورين قبلاً جديرُونَ بما سيحكمُ به بعدُ؛ واختيارُه للبعيدِ لنكتةِ التّعظيم، والصّيغة صيغة قصرٌ أفادَ أنّه لا فوزَ إلاَّ بسلُوك طريقِ هؤلاءِ، وعبّر بالإرثِ مجازًا عن الملك لأنّه أقوى أسبابه؛ ولأنّه مشعرٌ بالتّفضّلِ التّامّ عليهم، وعدمُ ذكرِ المورُوث ولّد به تطلّعًا إلى ما سيقُول من: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الذينَ يفوزون بجنّةِ الفردوس مخلّدينَ فيها لا يُخرجون منها ولا يَخرُجون، وأصلُ الفردوس البستان الواسع؛ سمّيت به جنّةُ المؤمنينَ كلّها حسب ما يقتضيه ظاهرُ الآية غيرَ أنّ الدّاخلين فيها مراتب؛ والرّتبُ في الجنّةِ لا يلزمُ أن تكونَ علوًّا مكانيًّا بل هي تفاضلٌ في مزايا النّعيم وخصائصه، واللّبيبُ يعي أنّ من لم يفز بتحصيلِ عظيمِ الخصالِ السّالفةِ لن يكونَ فردًا صالحًا لمكانةِ الجنّةِ الرّاقية، وفي هذهِ الآياتِ وما يستقبلُها ضربٌ من السّجعِ السّهلِ الملطّفِ للكلام.

٢. أطوارُ خلقِ الإنسان وتقرير البعثِ

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾.

ثمّ يذكر الله جملةً من دلائل قدرته بدايةً من خلقِ الإنسان أخذًا بأيدي المعرضين عن الإيمان بسببِ جهلهم بالمعبُود الحقّ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ واللهِ لقد خلقنا الإنسان من صفوةٍ من مادّةِ الطّين هي الصّلصال، واللاّم في "لقد" و اقعةٌ في جوابِ قسمٍ مقدّرٍ؛ وفي هذا تأكيدٌ أُوردَ لتقرير ما غلبت الغفلةُ عنه، والإنسانُ هنا مطلقٌ أراد به آدم عليه السلام، والسّلالة الخلاصة مشتقّةٌ من السَّلِّ وهو استخراج الشّيء عن غيرِه كسلِّ الشّعرةِ عن العجين، وفي هذا امتنانٌ على الإنسان بإخراجه من العدم إلى الوجود ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ثمّ أجرينا خلق الإنسانِ ابتداءً من ولد آدم الأوّل على سنّةِ التّزاوج وإلقاء الرّجلِ نطفته في رحمِ المرأةِ؛ وهو المرادُ بالقرارِ المكين، و"نُطفةً" نُصب على الحالِ بدلالةِ مخالفةِ الفعلِ من الخلقِ إلى الجعلِ؛ أي وضعناهُ وهو نُطفة، والمكين الثّابت في مكانٍ وهو هنا النّطفة؛ ووصف الرّحم به مجازًا وصفًا للمحلِّ بصفةِ الحالِّ فيه، وسمّي الرّحم بالقرارِ المكين لأنّه تُقضى فيه أفضل فترات العمر على أكمل الرّاحة والتّنعّم كما أثبت علماء الأجنّة ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ثمّ نُحوّلُ النّطفة إلى مرحلةِ العلقةِ، والنّطفة حيوانٌ منويٌّ لا يُرى إلاّ بالمكبّرات له رأسٌ وذنبٌ، والعلقة قطعةٌ أشبه بالدّم الجامد تعلَقُ في جدارِ الرّحم، ونسبَ هذه الأفعال كلّها إلى الله إشارةً لتفرّدِه التّامّ بخلقِ الإنسان في كلِّ مراحله حتّى في إذنِ خروجه من صلبِ أبيه ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وهكذا نحوّلُ العلقةَ إلى مضغةٍ، وهي قطعةُ لحمٍ بقدرِ ما يُمضغ؛ يرى القدماء بأنّها سمّيت بذلك لهذه النّكتة و أثبتتِ الكاميرات المجهريّةُ أيضًا بأنّ عليها آثارًا كأنّها المضغ؛ ولعلّها تمهيدٌ لظهورِ العظام ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ وبعدها ننشئ العظام على المضغةِ حتّى يتشكّل هيكلُ الإنسان وتبدأ طبيعته لحماً وعظماً، وهذا ما يؤكّدُه التّفريع الآتي: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ وسترنا العظام في الجسدِ كلّه باللّحم؛ وليس المراد بقيت العظامُ حينًا بلا كسوةٍ بل بيّن صورتَها بعد تمامِ تحوّلها عن المضغةِ، وعبّر بالاكتساء على سبيلِ الاستعارةِ لهيئةِ إلباس الثّياب، واختار العطف بالفاءِ هنا خلافًا لما في فواتح سورةِ الحجِّ لأنّ المراد هنا بيانُ الارتباطِ بين المراحل التي تُحقّقُ كمال الخلق؛ مناسبةً للتّنبيهِ الآتي أنّه تعالى لم يكن عن الخلقِ غافلاً في كلِّ أحوالِهم.

وفي هذه الآية إعجاز علمي باهر حيث ذكر مراحل خلق الإنسان بدقة متناهية في زمن لم توجد فيه مجاهر، ومن ناحية أخرى فقد أثبت القرآن في هذه الآية أن خلق العظام متقدم على خلق اللحم،

وهو خلاف ما كان سائدا حتى عند الأطباء من أن اللحم خلق قبل العظام، ولم يكتشف قطعيا أن العظم سابق في الوجود إلا في القرون المتأخرة، بينما القرآن الكريم سابق إلى ذلك ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ ثمّ بعثنا الحياة فيه بنفخِ الرّوحِ فخرج إلى الدّنيا خلقًا تامًّا، و"خلقًا آخر" إشارةٌ إلى تمام الخلقِ وحسنه وكأنّ شدّةَ التّحوّل الأخير تحوّلٌ من جنسٍ إلى غيرِه؛ كيف لا وقد صار ينطقُ ويسمع ويبصر حرًّا وكلٌّ جهازٍ فيه إلى مهمّته يسير بعد أن كان موصولاً بأمّه ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ثناءٌ من الله على نفسه بأنّه تعالى وتعاظم قدرُه حيث كان أحسن الخالقين خلقًا، وهو تعليمٌ لنا بأن نثني عليه كما يثني على نفسه، ومناسبةُ الثّناء التّنويه بأنّ شأن الإله أن يخلُق ليحقّق الغرض من بيانِ دلائل قدرته واستحقاقه للعبادة، والخلقُ هنا التّصويرُ وإحسانُ الصّنعة؛ كقوله لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]، ولم يصرّح بمتعلّق "تبارك" أي لم يبين في أي شيء تبارك، وكذلك لم يصرح بمتعلق"الخالقين" لإفادةِ تعميم أثرِ الفعلين ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وكلُّكم أيّها النّاس بعد نشأتكم و انقضاء عمركم ستموتون، وليس ثمّةَ من يُنكرُ الموت و إنّما أكّد الكلام تنزيلاً للمخاطبينَ منزلةَ من ينكرُه حيثُ كانوا لا يترجمون ذلك بالإيمان والعمل الصّالح، وهنا التفاتٌ عن الغيبةِ"خلقنا، جعلنا، كسونا، أنشأنا" إلى الخِطاب"إنكم" لأنّ المقام للتّخويفِ فناسبَ الخطاب، وذكر الموت توطئةً لقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ وكلّكم إذا حان يوم القيامة ستخرجون من قبُورِكم للحسابِ والجزاء، واستعمل التّأكيد هنا ردًّا على منكري البعث، وبتمام البعث اكتملت تسع مراحل انتقل عبرها الإنسان، وهنا دليلان على البعثِ؛ فالبادئ للشّيء لا يُعجزه أن يعيدهُ؛ والذي خلق الإنسان عبر كلِّ هذه المراحل لا شكَّ أنّه يُعدُّه ليومٍ يحاسبُه فيه.

ومن خلقِ الإنسانِ يعرُج إلى خلقِ السّماوات لينبّه بأنّ خلقه لعظيم المخلوقات لا يغفله عن دقيقها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ ولقد أبدعنا في العالم العلويّ فوقكم السّمواتِ السّبع العظام، و"لقد" كسابقتها و اقعةٌ في جوابٍ لقسمٍ مقدّرٍ، وسمّاها بـ"الطّرائق" صيغة منتهى الجموع لـ"طريقةٍ"؛ من طارقَ النّعال إذا جعل بعضها فوق بعضٍ تسميةً على سبيلِ الاستعارةِ،لأن كل سماء فوق الأخرى، وقيل: لأنّها طريقُ الكواكب، وفي القرآن: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطّارق: ١] والطّارق السّائرُ في طريقٍ، وذكرُ الفوقيّة"فوقكم" مع معلُوميّتها دعوة إلى النّظرِ والتّأمّل لإبصارِ عظمةِ الله من خلالها

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ولم نغفل عن بقيّةِ المخلُوقات من الإنسِ وغيرِهم فرعايتُنا لاحقةٌ بهم؛ والسّياقُ أنسب بهذا التّأويل، ويحتملُ أنّه تضمّن أيضًا تنبيهًا إلى اطّلاعه على أعمالِهم، ولم يقل: عنكم؛ ليعلّل سببَ رعايته لنا حيثُ كنّا خلقَه وفي هذا ما يقتضي الشّكر.

٣. امتنانُ الله علينا بنعمةِ الماء والأنعام والفلك

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾.

وَلَمّا فصّل في خلقِ الإنسانِ وأشار إلى عموم الكون بالسّماوات نوّه إلى سببِ الحياةِ وهو الماء ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ وأنزلنا ماء الغيثِ من السّحاب فوقكم بمقادير معلومةٍ؛ ليست بكثيرةٍ فتُهلك غرقًا وليست بقليلةٍ فتُهلك جفافًا، والتّعبيرُ بالجمعِ "وأنزلنا" والمنزلُ واحدٌ مجازٌ عن العظمةِ والقوّةِ التي هي من أثر الجماعة؛ وهو تعبيرٌ ناسبَ نظام نزولِ الماء البديع، وذكر التّقدير مزيدُ بيانٍ للإنزالِ الذي أصلُه في الاصطلاح القرآني أن يكون مناسبًا للحاجة بخلافِ الإمطارِ ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ ويسّرنا له سبل التّخزين في باطِن الأرض لتأخذوا منه حسب الحاجةِ وقت الحاجةِ، وفي نظام نزولِ ماءِ الغيث عبر كلِّ مراحله ما يدلُّ على قدرةِ الله الباهرةِ وعظيمِ حكمته ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ وإنّا كما قدرنا على إنزال الماء وإسكانه في الأرض قادرُون على أن نجعله يغورُ في أعماقِ الأرض فلا تملكون حيلةً لاستخراجه، وباء "به" للتّعدية أي: على إذهابه، وتنكيرُ ذهابٍ للتّفخيمِ؛ أي إذهابًا تختلفُ أحوالُه وتتعدّد، وأسلوب الآية في ابتدائه بنون العظمة والتّوكيدِ وذكر القدرةِ وغيرِ ذلك تضمّن تهديدًا،[4] والقرآن ما فتئ في سياقِ ذكرِ النّعمِ ينبّهُ إلى مثل هذا تربيةً لنا على شكرِ الله عليها لأنّ ذلك سبب حفظها ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فأخرجنا لكم بالماءِ الطّيّب بساتين

---

[4] وقد جمع ابن عاشور عن بعض المفسرين ما بلغ ثلاثين وجها بلاغيًّا تضمنته هذه الآية –على قصرها– مقابلةً مع آية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك ٣٠] على أنّ سـورة الملك نزلت عقبها، وفي ذلك عبرٌ بعظمة القرآن ينظر: **التحرير والتنوير**، ج: ٨، ص: ٣٠.

ذات بهجةٍ بما فيها من النّخيل المتنوّع والأعناب المختلفة، والإنشاء شمل الإبداع الأوّل ثمّ إفهام الله النّاس بسبله حتّى يستمرَّ، وخصّ النّخيل والأعناب وشجرةَ الزّيتون –فيما يأتي- بالذّكرِ لشهرتها عبر العالم قديمًا وحديثًا مع ما لا يخفى من منافعها الكثيرةِ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ لكم في الجنّات فواكه كثيرةٌ من حيثُ نوعُها و أفرادُها، وتكريرُ "لكم" جاء لإثباتِ امتنانه علينا، والفاكهةُ ما يتلذّذُ بأكله ويتفكّهُ به من الثّمارِ فإن قصدَ به القوت ابتداءً صارَ طعامًا؛ وعلى هذا فالتمرُ والعنب بعضُ أحواله فاكهةٌ وبعضُها طعامٌ، وقابل كثرة الفواكه بالماءِ الواحد تنبيهًا إلى عظمةِ إبداعه في إخراج الأنواع من أصلٍ واحدٍ، وكلُّ هذا تنبيهٌ إلى نعمةِ الاستمتاع بمنظرِها المبهِج ولذلك قال بعدها: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ومنها تأخذون لأكلكم فتستمتعون بمختلِف المذاقِ بعد استمتاعكم بمختلِف الألوان، ونكتة التّنبيه إلى الأكل أيضًا لأنّ الأكل منها أدوم بالادّخارِ ويتنوّعُ باختلافِ هيئةِ استغلاله ومكانِه ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِسَيْنَاءَ﴾ و أنشأنا بالماءِ شجرةَ الزّيتُون المباركة، والخرُوج هنا أريد به النّشأةُ أوّل مرّةٍ بأنّها كانت في طورسيناء فتوسّعت مناطق غرسها؛[5] أو هو خروجُ اكتشافٍ أي هي قديمةٌ وكان أوّل اكتشافٍ بأنّها ذاتُ نفعٍ في طورِ سيناء، وكلا التّأويلين يناسبُ عدم التّصريحِ باسمها إذ شأنُ الاسم أن يلحق بعدُ، وعبّر بالمضارع "تخرج" لاستحضارِ ذلك الخروج العجيب، ولعلّ فائدةَ ذكرِ مصدرِ المنتُوج التّفنّن في تسويقه؛ وما أكثر منافع تلك الشّجرةِ! وعبّر بعموم الشّجرةِ تنويهًا بأنّ فوائدها العظيمة لم تتوقّف على ثمرتها، والطّور الجبل؛ والإشارةُ إليه تضمّنت تنبيهًا إلى خاصّيّة الزّيتُون في نشأته حتّى في المناطق الوعرة ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ تُخرِجُ تلك الشّجرة الزّيتَ الكثيرة منافعه، كما يكونُ منها إدامُ طعامكم، والدّهن أعمّ من الصّبغ فيشملُ الأكل وغيرهُ؛ وخصَّ الصّبغ للأكلِ كما هو ظاهرُ الآية؛ وإن كان مدلول اللّفظين لُغويًّا لا يكادُ يختلف، وأصلُ الصّبغ ما يلوّن به واستعمل هنا لإدامِ المأكولاتِ استعارةً لهيئةِ تلوّنها به، والباء في "بالدهن" بمعنى مع، أي مع الدهن ،أو الباء للتعدية أى تنبت الدهن.

ويتطرّقُ إلى نعمةِ الأنعام ومنافعها من الألبانِ المشروبة واللّحوم المأكولة ومنفعةِ ركوبها إضافةً إلى شتّى المنافع ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ ولكم أيّها النّاس في الأنعام عظة

[5] ، وهو تابعٌ للدّولة المصريّة حاليًا، ويجدُر التّنبيه إلى أنّه لا علاقة بين شخصِ موسى ومدحِ شجرةِ عليه السلام وهو الموضع الذي كلّم الله فيه موسى الزيتون.

لكم من خلالِ ما تستخلصونه من ضرُوعها من الألبان، والأنعامُ في عُرف العرب الإبل؛ ويتبعُها البقر والضّأن والمعز، وجاء بالتّأكيد تحويلاً للأنظارِ من الفوائدِ المادّيّةِ إلى الفوائدِ الرّوحيّةِ وكأنّه قال: إنّ لكم فيها لعبرًا فكّرُوا فيها أوّلاً؛ ومن ذلك أنّه في دقّةِ خلقها دليلٌ على عظمةِ الخالقِ و انفراده بالخلقِ، و"العبرة" الدّليلُ على الشّيء؛ مأخوذةٌ من العبورِ لأنّها تأخذ بصاحبِها من شقّ الجهلِ إلى شقّ العرفان ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ ولكم مختلف المنافعِ من الأنعام قبل ذبحها كالحمل عليها والابتهاجِ بمنظرِها؛ وبعدَ ذبحها بالاستفادةِ من أغلبِ أجزائها وبالمالِ الحاصلِ من بيعها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وتستمتعون بالأكلِ من لحومها المختلِفة؛ بطرقِ تحضيرٍ متنوّعةٍ في شتّى الهيئاتِ وعلى متعدّد الحالات ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى ظهورِ الأنعامِ تحملُون إلى أماكن يشقُّ عليكم بلوغها، وهنا أراد الإبل خاصّةً؛ ولا ضير أن يحمل هذا المقطع على غيرِ ما حمل عليه ما سبق ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ كما تحملون على السّفنِ العظيمةِ المتنوّعة، والحمل شمل الرّكوب وحمل المتاع لأنّه مرتبطٌ به، وبذكره للسّفن جمع بين النّقلِ البرّيّ والبحريّ، وفي حياةِ الأنعام ومعاشرتها لغيرِها من جنسها وطريقةِ أكلها وحالها عند الذّبح وما بعدهُ من طبخٍ وشواءٍ وغيرِ ذلك عبرٌ نفيسةٌ للمتأمّلين يقرؤون بها حياتهم ومعادهم.

٤. قصّةُ نوحٍ عليه السلام مع قومه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥)﴾

بعد بيان دلائِل قدرةِ الله في الخلقِ شرعَ في بيانِ أحوالِ بعضِ الأنبياء السابقين مع أممهم ابتداءً من نوحٍ عليه السلام مع قومه؛ والمناسبةُ أنّ ما سيذكُر من أحوالِ تلك الأمم كان شبيهًا بأحوالِ المخاطبينَ بالآياتِ السّابقةِ، ومن لطيفِ الانتقال أنّه انتهى بالفلك ثمّ شرع في قصّة نوحٍ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ والله لقد بعثنا رسُولنا نوحًا إلى قومه؛ ولا يُعلم نبيٌّ عاصرَ نوحًا، فيكونُ المراد بقومه أهل زمانه، واللاّمُ في "لقد" و اقعةٌ في قسمٍ مقدّرٍ؛ ولعلّ فائدته تأكيدُ ما تضمّنته القصّةُ من عبرٍ لأنّ الشّكّ في القصّةِ مبطلٌ للاعتبارِ بها، وهنا يلزمُ تقديرٌ أي: فوجدهُم على عبادةِ غيرِ الله ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فخاطبهم داعيًا إيّاهُم: يا قومِي أذعنُوا لله وحدهُ، والتّعبيرُ بفاءِ التّعقيبِ إشارةٌ إلى امتثالِه

الحريص لتبليغِ ما كُلِّف به، وناداهُم بألطفِ ما يربطُهم به تاركًا أوصاف التّشنيع التي قد تصلُح فيهم تحبيبًا لدينِ الله وتنزيهًا له عمّا ينفّرُ عنه، وبدأَ بدعوتهم إلى الله شأن الرّسلِ في توجيهِ أقوامهم؛ إذ الإذعانُ لله هو المقصدُ الأسمى من إيجادِهم ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ليس لكم إلهٌ سواهُ يستحقُّ العبادة، والنّكرةُ "إله" في سياقِ النّفي أفادت التّعميم؛ و"من" صلة لتأكيدِ النّفي، وقومُ نوحٍ يعرفُون الله بدليلِ قولهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ فدعوةُ نوحٍ لهم تتلخّصُ في إبطالِ عبادةِ كلِّ معبودٍ غير الله والاتّجاهِ بالعبادةِ لله الواحد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافُون الله وتحذرُون عذابه؛ والاستفهامُ محمولٌ على معنى: الزّجرِ والتّوبيخ فهو لا ينتظرُ منهم جوابًا.

ردّ وجهاءُ قومِ نوحٍ عليه السلام الكافرُون على رسُولهم مخاطبين بعضهُم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ واستعمل فاء التّعقيبِ للتّنبيه على معاجلتهم في تكذيبِ رسُولهم، والملأُ أشرافُ القوم؛ سمُّوا بذلك لامتلاء المجالس بهم وامتلاء العيون رهبةً منهم، وذكَر كُفرهم احترازًا من الأشراف المؤمنين على قلّتهم؛ وليبيّن سببَ إعراضهم أنّه استحبابُهم البقاء على الكفر ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ليس نوحٌ إلاّ واحداً منكم له ما لديكم من الصّفاتِ البشريّةِ، والإشارةُ بـ"هذا" دليلٌ على أنّ نوحًا بينهم يسمعُ ردّهُم، وهذا الإخبار مستعملٌ في إفادةِ التّحقيرِ حتّى إنّهم استغنوا عن اسمه اكتفاءً بالإشارةِ إليه، وهذا الاحتجاج كم ضلَّت به الأمم جاهلةً بأنّه حتّى لو لم يكونوا بشرًا لوقع الاحتجاج؛ ثمّ إنّه محضُ ابتلاءٍ أرادهُ الله ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أحبَّ أن تكون له مزيّةُ شرفٍ أورياسةٍ عليكم، وهذا الرّدُّ مسارعةٌ في إطلاقِ الحُكم حفاظًا على المنصب وتضليلاً للرّأي العامّ ضمانًا لبقاءِ الأتباع؛ فإنّ الدّاعية إلى الفضيلةِ قد تميّزَ بخصالِه وإن بدت هيأتُه البشريّة كغيرِه، وهذهِ حالةٌ نفسيّةٌ عند أولي الزّعامةِ يرونَ كلَّ دعوةٍ مسًّا بسلطتِهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ ولو شاء الله إنزال وحيٍ لنا لبعث إلينا ملائكةً، ومفعُولُ شاءَ محذوفٌ لدلالةِ "لو" عليهِ تقديرُهُ: إنزالَ، وما أبعد ضلال هؤلاءِ إذ استغربُوا نبوّةً في البشرِ و أثبتُوا ألوهيّةً للحجر! وأحبُّوا نزول الملائكةِ؛ وهل تنزلُ الملائكةُ لهم إلاّ لِلعذاب؟ وبعد تكذيبِهم للدّاعي وجّهُوا التّكذيب للدّعوة ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ لم نسمع في تاريخنا بأنّ الألوهيّةَ تنفردُ في إلهٍ واحدٍ، ويجوزُ عودُ الإشارةِ إلى شخصِ نوحٍ أو آخرِ ما ذكر وهو الرّسالة؛ أي ما سمعنا برسالة نوح أو ما سمعنا برسالة تكونُ في بشرٍ، والسّماعُ مستعملٌ في معنى ما بلَغَهم من الأخبار،

والمرادُ بالآباء عموم الأجداد؛ وقولُه: "الأوّلين" لإفادة عموم من سبقَ منهم، و أنت خبيرٌ بأنّ الاحتجاج بعدمِ السّماع بالشّيءِ ليس دليلاً على عدمِ وجوده؛ إذ قد يكون تقصيرًا في البحثِ وغيرِ ذلك ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ لا يكونُ نوحٌ بخرُوجه المفاجئ هذا ورُؤيته لنا بأنّا جميعًا في ضلالٍ إلاّ ممسُوسًا من الجنِّ، و"جِنّةٌ" من جَنَّ عليهِ إذا سترهُ ومنه الجنون؛ سمّي به الجنُّ لأنّ طبيعتَهم تأبى الظّهور، والتّنكير "جنة" لإفادةِ نوعٍ من الجنونِ وليس الجنون الكامل تحرّزًا من وصفٍ فوقَ ذلك يكشفُ كذبهم بدلالةِ حالِ نوحٍ الطّبيعيّة، وليس في الرّسل نقصانُ عقلٍ فضلاً عنِ الجنونِ، و إنّما فيضانُ العنادِ طغى عليهم حتّى أطلقُوا حُكمًا بناءً على مظهرٍ جديدٍ لم يعهدُوه ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ فلا تستعجلُوه بالتّعنيف إلى حين يرجعُ إلى صوابِ عقله؛ وفي هذا تهكّمٌ لا تصرّفُ حكمةٍ كما قد يتبادرُ، أو تربّصُوا حتّى يظهرَ جنونه واضحًا فتعلموا صدقَ كلامنا؛ وفي هذا تفويتُ الاستعجالِ بالاستجابةِ له كي لا يكسب أتباعًا، والتّربّصُ الانتظارُ تحيّنًا لفرصٍ أفضل، والحين مدّةُ زمان غير محدّدةٍ.

٥. إنجاء نوحٍ عليه السلام ومن معه وإغراقُ قومه الظّالمين

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)﴾.

وبعد صبرِ نوحٍ عليه السلام على تكذيبِ قومه رفع يديه بالدّعاء: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ يا ربّي أيّدني واحفظ دعوتك بإهلاكِ الظّالمين من أجلِ تكذيبِهم لي، وطلبُه النّصرة لأجلِ ذلك اقتضى أنّه عدَّ تكذيبهم اعتداءً على دعوته، والرّسُول منزّهٌ عن الانتصارِ لنفسِه فطلبُه شمل أتباعه أيضًا؛ أي و انصر اتباعي، وبالأحرى دعوته.

وسمع الله استغاثة رسوله نوحٍ عليه السلام فأجابه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ فأوحينا إليه بأن يشرعَ في صناعةِ سفينةٍ عظيمةٍ يحملُ فيها من أراد الله نجاتهُ، ولكونِ نوحٍ عليه السلام كان مترقّبًا من قومه

اعتداءً؛ وغيرعارفٍ بأحوالِ صناعةِ السّفنِ وإدارتها قال الله له: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ صناعةً تتمُّ برعايةِ الله لا يتعرّضُ لها أحدٌ؛ وبتأييدِه بالوحيِ فيما يكونُ في شأنِ تصنيعها والحملِ عليها والانطلاقِ بها، وعلى طريق الاستعارةِ عبّر عن الحفظِ بالأعينِ لأنّها وسيلةٌ معهودةٌ لذلك؛ وأضافها الله إلى نفسه"أعيننا"على سبيلِ العظمةِ تشريفًا لنوحٍ عليه السلام وبيانًا لتمام حفظه له، والعين الجارحة ينزه الله عنها، لأن الله ليس كمثله شيء، ولم يذكُر الإعانة المادّيّة على صناعة السفينة مع عِظمِ السّفينة، ولعلها أُنشِئَت على مدّةٍ تحقيقًا للعبرةِ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فإذا شاهدت أمارةَ بداية الطّوفان؛ وهي خُروج الماء من التّنّور بشدّةٍ، وعبّر بالمجيءِ كنايةً عنِ الاقتراب، و"التّنّورُ" وجهُ الأرضِ؛ وقيل: موضع طبخ الخبز؛ وقيل: اسمُ مكانٍ؛ وقيل: مأخوذٌ من النّورِ وأراد تنوير الصّبح، والأقرب أنّ فوران التّنورِ كنايةٌ عن اشتدادِ الوضعِ كقولنا: حمي الوطيس ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ فاحمل على السّفينةِ من كلّ حيوانٍ وجدته ذَكَرَهُ و أنثاهُ، والتّنوينُ في "كُلٍّ" للعوض، والزّوجُ مفردٌ له مقابلٌ استحقَّ بهِ اسم الزّوجيّةِ؛ فوجّههُ بـ"زوجين" إلى الجمعِ بينَ الذّكرِ والأنثى؛ وبـ"اثنينِ" إلى أن يكونَ جمعًا بينهما مرّةً واحدةً، والله قادرٌ على حفظِ النّوعِ الحيو انيّ بدونِ هذا و إنّما أراد أن يربّي عمليًّا على ذلك السّلوكِ الحضاريّ ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ واحمل أهلك المؤمنين أيضًا باستثناءِ من سبقَ في علمِ الله الحُكم في شأنهم أنّهم لا ينجون؛ كامرأته و ابنه، والأهلُ هنا الأتباع المؤمنون ودخلت القرابة المؤمنة من بابٍ أولى، ولعلّ نوحًا عليه السلام علم بهم من خلالِ إخبارِ الله له: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] وبدَأ بما قد يُغفلُ عنه (الحيوان) وأخّر مَن دواعي العطفِ تميلُ لهم فطرةً (الأهل) حتّى احتاجَ المقامُ إلى النّهيِ عن المخاطبةِ فيهم ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ولا تحدّثني عن الكفّارِ ترجو النّجاة لهم فإنّه محكومٌ عليهم بالغرقِ لا محالة، وذكرهم بعنوانِ الظّلمِ ليبيّن استحقاقهم للعذابِ، وأكّد ذلك وأوردهُ بالجملةِ الاسميّةِ مبالغةً في التّحقيق، وفي هذا توجيهٌ قرآنيٌّ في عدمِ طلبِ العفوِ والرّحمةِ لمن شُهد عليهم بكبائرِ الآثام من الهالكين.

وبعد تمامِ صناعةِ السّفينة وحملِ المقرّرِ حملهم فيها خاطبَ الله نوحًا موجّهًا إيّاهُ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ فإذا تمّ رُكوبك أنت ومن معك من الأتباع على السّفينة، وحقيقةُ الاستواء

الاعتلاء على الشّيء، وبدأَ بذكرِ نوحٍ عليه السلام وخصّهُ بالضّميرِ ولم يقل: استويتُم؛ اهتمامًا بحظِّه في السّفينةِ على كثرةِ راكبيها، وأعاد ذكر "الفلك" لطولِ الفصلِ وللتّنويه بنعمته ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فاحمدِ الله قائلا: الحمد كلّهُ لله على أنّهُ حفظنا من أذى قومنا وعصمنا ممّا عذّبُوا به، وأعاد ذكرهُم بلقبِ الظّلمِ تقريرًا بأنّهم لم يهلكوا إلاَّ بسببِ ظلمهم الذي اكتسبُوهُ بأيديهم، ولَمّا كان الغرضُ من الثّناء حمد الله على إعزازِ دينِه أمر نوحا عليه السلام بأن يدعو بما يلبّي ذلك الغرض فلم يقل له قل: الحمدُ لله على هلاكهم، وقيام دعاء نوحٍ مقام الجماعةِ التي معه فيهِ دليلٌ على شرفِ دعاء القائد والإمام باسم جماعته. وهذا دعاءٌ في دفعِ الضّرّ قابله بدعاءٍ في جلبِ الخير ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا﴾ وقل راجيًا: يا ربّي يسّر لي مهبطًا آمنًا، والْمُنزلُ المبارك موطئ الأقدامِ بعد النّزولِ من السّفينةِ، وزعم بعضٌ أنّه الاستواء على السّفينة لأنّها مستهلُّ النّجاة، والتّوجيهُ بهذا تربيةٌ على الإحسان في الدّعاءِ، ورأى بعضُ العلماءِ أنّ هذا الدّعاء ممّا يرغّبُ في الدعاء به كل هابطُ من المركب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ و أنت خيرُ من يحفظُ عبادهُ ويُنزلُهم مقاماتِ الأمان، وبين ألفاظِ الإنزالِ في الآية (أنزلني، المنزلين) جناس اشتقاق ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ إنّ في ثنايا قصّةِ نوحٍ عليه السلام لعبرًا للمعتبرين بعظمةِ الله في نصرةِ عباده وبعزّةِ المؤمنين في تمكينِهم وبمهانةِ الظّالمين في إهلاكهم ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ و إنّا كنّا لمختبرين نوحًا عليه السلام و أتباعهُ ليستفيد باختبارِهم غيرُهم، و"إن" مخفّفةٌ من "إنَّ" التّوكيديّة، ونكتةُ التّوكيدِ تقريرُ الإرادةِ الإلهيّةِ في حدوثِ ما حدث فلو شاء الله لآمن قومُ نوحٍ كلّهم وَما أوذي نوحٌ ولا أُغرق قومه، وفي ذكرِ هذهِ القصّةِ مع سنواتِ الهجرة إلى المدينةِ تسليةٌ للرّسُول ﷺ ممّا كان يلاقيه بأنّه ابتلاءٌ يعترض ويزولُ؛ وتعليمٌ له بأن يصبر كما صبرَت الرّسل قبله؛ فإنّ ذكر الأشباهِ من البلايا يخفّفُ وطأتها.

٦. قصّةُ هودٍ أو صالح عليهما السلام مع قومه

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤)﴾.

وبعدَ قصّةِ قومِ نوحٍ يأتي إلى قصّةِ عادٍ قومِ هودٍ عليه السلام ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ثمّ أوجدنا بعد قومِ نوحٍ قومًا آخرينِ؛ وهم قومُ هودٍ عليه السلام بدلالةِ ورودِ قصّتِهم بعدَ قصّةِ نوحٍ عليه السلام في شتّى مواضع القرآنِ؛ ولقولِ هودٍ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ولعلّهم لم يذكرُوا بالاسمِ هنا لشهرتِهم بعدَ نوحٍ؛ ولأنّه سيذكُرلهم أحوالاً متشابهةً جعلتهُم وكأنّهم تبعٌ لمن قبلهُم، وذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بهم ثمود قوم صالح عليه السلام، بدليل: أنه سيذكر في أخر القصة أنهم أخذتهم الصيحة،والذين أخذتهم الصيحة هم ثمود كما نص الله تعالى على ذلك في آيات أخرى، والقرنُ الأمّةُ؛ سُمّيت بذلك لأنّ مدّةَ القرن تناسبُ فترةَ تعميرِ أفرادها ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ فبعثنا إليهم رسُولاً من قبائلِهم، وقولُه "فيهم" للدّلالةِ على أنّهُ نشأَ بينَهم ليكونَ إعراضُهم عمّن عرفُوه حجّةً عليهم بالتّنطِّع والمكابرةِ، وشأنُهم هذا شأنُ من بُعث فيهم مُحمّدٌ ﷺ ليكون أدعى لتسليتِه، وهنا يلزمُ تقديرٌ على نحوِ ما سبقَ في قصّةِ نوحٍ عليه السلام أي: فوجدهم يعبُدون غيرَ الله فدعاهُم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ اجعلُوا العبادةَ لله وحدهُ ليس لكم إلهٌ غيره يستحقُّ العبادةَ؛ أفلاَ تخافُون الله وعذابه بإصرارِكم على الشّركِ والمعاصي، وهذهِ الدّعوةُ عينُ ما دعا بهِ نوحٌ عليه السلام إيذانًا بوحدةِ الأصولِ التي نادت بها الرُّسل.

وكان الجوابُ الذي لقيه نبيهم منهم أيضًا أشبه بما لقيه نوحٌ عليه السلام ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ قال أشرافُ قومِه الكافرونَ بالله المكذّبونَ باليوم الآخر الذي فيهِ لقاءُ الله للحسابِ والجزاء، والإضافةُ في "لقاء الآخرة" بمعنى: اللّقاء في الآخرةِ ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ واللهُ قد غمرهُم في الدّنيا بالنّعمِ الو افرة حتّى ينسيهم التّرفُ حقَّ الله جزاءً لإعراضهم، وهذهِ الأوصافُ عائدةٌ إلى الملإ لا إلى عمومِ القومِ لأنَّ التّرف أنسبُ بهم، وأطنب في إيراد تلك الأوصاف عنهم ذمّا لهم؛ ولبيانِ أنّها كانت الباعث على تكذيبِهم ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ قالُوا: ليس هذا الذي يزعم أنه نبي إلاَّ كواحدٍ مثلكم لا يظهرُ بينكم وبينه فارقٌ يُفضّلُه عليكم؛ فقد تخيّلُوا مجازفةً بلا رويّةٍ أنّ الرّسالةَ لا تكونُ إلاّ فيمن امتازَ بخصائص تخرجهُ من صفاتِ البشر العادية، وردُّهم هذا أنسبُ أن يكونَ من الملإ على بعضِهم ويُحتملُ أنّ بعضهُ موجّهٌ إلى عامّةِ القومِ ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ يأكلُ من نفس ما تأكلُونه ويشربُ من نفسِ ما تشربُونه، أشارُوا بهذا إلى النّقائص التي

تعتري الطّبيعةَ البشريّة كالاحتياجِ إلى الطّعامِ وما يلزمُ منه من قضاءِ الحاجةِ؛ وكأنّهم أرادُوا التّقريرَ بأنّ الرّسالة السّماويّة أرفع من أن تكونَ في البشروهذا يتو افقُ مع قولِهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ واللهِ إذا بادرتُم إلى اتّباعِ من هو بشرٌ مثلكم، واللاّمُ في "لئن" و اقعةٌ في جوابِ قسمٍ مقدّرٍ، وعبّرُوا بالطّاعةِ دون الحبِّ أو الاعتراف ونحوِ ذلك ليعكسُوا فهمهم لما يطلُبُهم به رسُولهم من تمامِ الإذعان للهِ وتركِ كلِّ وجوهِ الشّركِ ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ إنّكم حتمًا لفاقدُون لمناصبكم السّياديّة، وأكّدُوا لهم الخسران لأنّ مثل دعاواهُم هذه صعبة التّصديق؛ وشأنُ أهلِ الباطِل أن يحمل بعضُهم بعضًا بالقسرِ إذا اشتمُّوا رائحةَ من يزعزعُ مكانتهم ويفرق شملهُم، وما أشقى أهل الضّلالِ حينَ تعمى بصيرتُهم عن الخسارةِ في عبادةِ الأصنامِ وتنفتحُ إلى خسارةٍ في اتّباعِ الرّسُول الحقّ!

٧. تكذيبُ القوم لرسُولهم وإهلاكهم بالصّيحة

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾.

ولَمّا أثبتُوا تكذيبهُم بجملةِ الرّسالةِ انتقلُوا إلى فرعٍ ممّا يحدّثُهم به ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ هل يتجرّأُ بأن يؤكّدَ لكم البعث بعدَ أن تموتوا وتكونوا تر ابًا ولا تبقى منكم سوى العظام، والاستفهامُ واردٌ لمعنى الإنكارِ والاستهزاء، وكرّر "أنّكم" للتّأكيدِ ولوجودِ الفصلِ بكلامٍ؛ وهو تكريرٌ حسنٌ، وشأنُ المجادلينَ أن يحتجُّوا بأمورٍ معيّنةٍ لديهم يشوبُها الاشتباهُ ابتداءً كي يتّخذُوها سدًّا مانعًا من قبُولِ باقي الدّعوةِ الواضحة البيّنة ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ بعيدٌ جدًّا بعيدٌ أن يحصل ما يعدُكم بهِ، و"هيهات" اسمُ فعلٍ ماضٍ بمعنى: "بَعُد"، وأكثرُما تردُ بالتّكريرِ كما هنا وهو مفيدٌ للتّوكيد، واستبعادهم هذا محمولٌ على الإنكارِ الكلّيّ لأنّه وردَ على طريقِ الاستهزاء، وأصلُ "يعدُكم" مِن وعدَ و"تُوعدُون" من أوعدَ؛ جمعَ بينهما براعةً لأنّ الإعلام بالبعثِ مشتملٌ وعدًا بالخيرِ إن صدّقُوا ووعيدًا بالشّرِ إن كذّبُوا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ليست ثمّةَ من حياةٍ لنا إلاّ هذهِ؛ يموتُ الكبارُ ويولدُ الأبناء وهكذَا، وعبّرُوا عن الميلادِ بالحياةِ مجازًا لأنّها نتيجتُه الغالبة، والكلامُ

هنا بحُكم المجموعِ والأصلُ: نحيا ونموتُ؛ لأنّ ذكر الآباءِ يستمرُّ إذا تركوا خلفهُم أبناءً، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ولا أحدَ منَّا سيُبعثُ، وفي هذا تأكيدٌ للكلامِ الآنفِ حول إبطالِ الوعدِ بالخروجِ بتكريرِ مدلولِه وبالتّعبيرِ بالجملةِ الاسميّة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لا يكونُ هودٌ أو صالح بسببِ ما يُصرّحُ به إلاَّ رجلاً اختلقَ أكاذيب مدّعيًا أنّها حقائق أخبرهُ الله بها، وهنا ارتقاءٌ منهم في الرّدِّ على صلاحيةِ الرّسالةِ في هودٍ مِن أنّهُ بشرٌ مثلهُم إلى كونه كاذبًا على الله ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولسنا مؤمنين بهِ بحالٍ من الأحوال ما دام أنّه يكذبُ على الله، ومن الدّهاءِ في التّضليل تسفيه الحقِّ مع الصّدع بمقاطعتِه ممّا يجعلُ عوام الأتباعِ يستأنسون بالحُكم وينقادُون امتثالاً.

ولَمّا أحسَّ هودٌ عليه السلام من قومه التّصميم على الكفرِ دعا قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ يا ربِّ أيّدني بنصركَ واحفظ دعوتك بإهلاكِ القومِ الكافرينَ من أجلِ تكذيبِهم إيّايَ، ومثل هذا الدّعاء سبقَ من نوحٍ عليه السلام ليُؤذنَ للرّسُول ﷺ وكلِّ داعيةٍ بأنَّ آلامهم في سبيلِ نصرةِ دينِه متّحدةٌ وكأنّها تمسُّ قلبًا واحدًا.

وسمع الله دعاء نبيهم عليه السلام فأجابه: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ ما هو إلاَّ زمنٌ قليلٌ حتّى يلحقَ بهم عذابُ اللهِ فيندموا على مكابرتهم لدعوتكِ يوم لا ينفعُهم ندمٌ، وأصله: عن قليلٍ؛ وزاد "ما" تأكيدًا للقلّة، و"عن" تفيدُ معنى المجاوزةِ أي بعدَ مرورِ زمنٍ قليلٍ، وأكّدَ الوعيد (ليصبحن) طمْأنَة لخاطِر النبي عليه السلام الذي صبرَ طويلاً، وجاء الوفاءُ بفاءِ التّعقيبِ المباشر مناسبةً للوعدِ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ فأرسلَ الله عليهم ريحًا تضمّنت صيحةً قويّةً هلكُوا بسببِها؛ ولزم هذا التّأويل بناءً على أنَّ عادًا ثبتَ هلاكُهم بالرّيح؛ على أنّ المخالفة في وصفِ عذابِهم بينَ موضعٍ وآخر دلَّ على مزيدٍ من فظاعتِه فهم يواجهون كلّ تلك الأهوال ليموتوا ﴿بِالْحَقِّ﴾ إهلاكًا مقدّرًا بعدلٍ ليس فيهِ حظٌّ من الباطل والظّلم، واستدلَّ بعضُهم بناءً على العذابِ بالصّيحةِ أنَّ القومَ المبهم اسمُهم هم قومُ صالح عليه السلام كما تقدم ذكره في أول القصة ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ فصارُوا بعدَ العذابِ شتاتًا ممزّقينَ، وأصلُ الغثاء العشب إذا يبس وحملهُ السّيلُ؛ واستُعمل هنا لقوم هودٍ الذين أبادهُم العذاب استعارةً لحالِ مهانة الغثاء وسرعة تلاشيه ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أبعدهُم الله من قومٍ عاشُوا ظالمينَ لأنفُسهم بالتّكذيبِ والإصرار على الشّركِ، و"بعدًا" منصوبٌ بفعلٍ تقديرُه: بعُدوا بعدًا؛ وصيغتُه دعاء بالهلاكِ

على وجهِ التّحقيرِ؛ مناسبةً لاستجابةِ دعاءِ رسُولهم بالنّصرِ، واختارَ ذكرهُم بعنوانِ الظّلمِ تقريرًا لسببِ إهلاكهم وليحذّرَنا من عاقبتِهم.

٨. سنّةُ الله العامّة في الأمم وذكرُ موسى عليه السلام

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾.

وبعد قصّةِ نوحٍ وهودٍ -عليهما السّلام- يتحدّثُ إجمالاً عمّن عقبهُم ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ ثمّ أحيينا بعد أقوام النّبيينِ أقوامًا آخرين؛ كقوم إبراهيم ولوطٍ وشُعيبٍ، والقرُون الأمم؛ سمّيت بذلك لأنّ شأن أعمارِها أن تعدَّ بالقرُون، وفي الكلام تقديرٌ على أسلوبِ الإيجاز القرآنيّ في حكايةِ القصصِ إذا سبق ما دلَّ على المحذوف، والتّقديرُ: فأرسلنا إليهم رُسلاً فكذّبُوهم فأهلكناهُم ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ولا تُهلكُ أمّةٌ قبل انقضاءِ أجلِها المقدّرِ ولا تؤخّرُ عنه، وفي الاقتصارِ على ذكرِ خاتمتها "الأجل" تنبيهٌ بأن يؤخذ من تاريخ الأمم ما فيهِ الاعتبار؛ فمن طبعِ النّاس حبّ التّطلّعِ إلى تفاصيل قد لا تفيدُ، والجمعُ في يستأخرُون باعتبارِ النّاسِ الذين يشكّلُون الأمّة، وقيل: تلك أممٌ لم تحظَ بإرسالِ رُسلٍ لحكمةٍ و اتّبعت شرعًا قبلها؛ وهذا تأويلٌ محتملٌ يُناسبُه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ ثمّ بعثنا رُسلاً منّا إلى أممهم تتابعُ، و"تترى" اسم كذكرى يعرب حالا لم يسمع له فعلٌ؛ أصلُه "وترى" وقلبت واوُه تاءً؛ وألفُه للتّأنيث؛ اشتقَّ من الوترِ وهو الفرد ومنهُ التّواتُر والوتيرة؛ أي تتابع بعضٌ وراءَ بعضٍ فردًا فردًا، وفي هذا إيماءٌ إلى أنّه لا تنتهي رسالةُ رسُولٍ حتّى يبعث الله رسُولاً يليه إقامةً للحجّةِ على البشرِ، وكانت سنّةُ الأقوامِ في التّعاملِ مع الرّسلِ أنّه ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ كلّما يأتيهم رسُولٌ يقابلونه بالتّكذيبِ، و"ما" مصدريّةٌ،[٦] ، وأضاف الرّسول إلى الأمّةِ تلميحًا

[6] وإملائيا تكتب متصلة بـ "كل" وورودها مفصولة في هذا الموضع خصوصية في الرسم القرآني لا يقاس عليها.

إلى كُفرِهم بنعمةِ إرسال رسُولٍ خصّوا به، وتضمّن الأسلوب تحسّرًا عليهم كقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس ٣٠] ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ فنحكُم على المكذّبينَ من الأمم اللاّحقةِ كما حكمنا على من سبقَهم فنُهلكهم فلا يبقَى لهم من أثرٍ إلاَّ قصص تروى عنهم، و"أحاديث" جمعُ حديث أو أُحدوثة كأعجوبة وهو ما يُتحدّث عنه لتضمّنه عجبًا أو استغرابًا، والتّنبيهُ إلى هذا الجعلِ تنويهٌ بطبيعةِ التّراكمِ التّاريخيّ الذي يوجّهُ مسار مستقبلِ النّاسِ نحوَ الشّرّ أو الخيرِ بحسبِ إرثِهم التّاريخي ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فبَعُدَ بُعدًا القومُ الذينَ عاشُوا وماتُوا لا يؤمنون بالرّسلِ الذين بعثُوا فيهم،.

ثمَّ يأتي بعدَ ذلك الحُكم العامّ على الأممِ المكذّبةِ إلى ما جرى مع دعوةِ موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ثمَّ بعثنا موسى مؤيّدًا بأخيهِ هارُون -عليهما السّلام- معهما آياتُنا وبراهينُنا الواضحة على صدقِهما، والآيات العصا واليد والجراد والقمّل والضّفادع والدّم والطّوفان والسّنون ونقص الثّمرات؛ والسّلطان أي الحجّة وهو أثرُ تلك الآياتِ على القلوب عند عرضِها؛ وأوردهُ مفردًا"سلطان" إشارةً إلى أنّها على اختلافِها جاءت لغرضٍ واحدٍ هو بيانُ الحقّ، وأضاف الآياتِ إلى ضميرِ العظمةِ"بآياتنا" على سبيلِ تشريفها ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ بعثناهُما إلى فرعون وأشرافِ قومه، و"فرعون" لقبُ كلّ حاكمٍ اعتلى عرش مصر في تلك الأزمنةِ؛ أريد به هنا خصوصا الذي عاصر موسى عليه السلام والذي اشتُهر حتّى صارَ مضربَ المثلِ في التّسلّط، ولم يذكُر قومه كأنّ دعوة موسى لم تجد بابًا إليهم دون المرور من فرعون لشدّةِ نفوذه السّياسيّ، أو الملأ هنا مجازٌ عن كلّ قومه حيث كانُوا يمثّلونَهم، ويؤيّدُ التّأويل الأوّل قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ فما كان منهم إلاَّ أن تكبّرُوا على الحقّ وقد كانُوا أهل غطرسةٍ على الخلقِ، ولم يكتفِ بوصفِهم بالاستعلاء ونعتِهُم بما يدلّ على أنّ تلك الخصلة من خصائص قوميّتِهم، وفاءُ التّعقيبِ أفادت أنّهم سارعُوا إلى التّكذيبِ ولم يعطُوا للتّأمّلِ في الدّعوةِ حقّه، والسّينُ والتّاء في "استكبرُوا" للمبالغةِ، وبيّنوا سببَ استكبارِهم قائلين: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أنصدّقُ بشرينِ لا يختلفانِ عن طبيعتنا في شيءٍ ونذعنُ لدعوتهما؟ والاستفهامُ لإنكار إيمانِهم لِمن يُماثلُهم في البشريّةِ، والقولُ هنا من بعض الملإ لبعضٍ؛ ولَمّا رضُوا به جميعًا نسب إلى الكلّ، واللاّمُ في "لبشرينِ" لتعديةِ فعلِ الإيمانِ؛ يقالُ: آمن لهُ

إذا صدّق بشيءٍ جاءَ بهِ؛ وآمن بهِ إذا صدّقَ بذاتِه، والأصلُ أن يقولوا: مِثْلَيْنَا؛ فأُفردَ المصدروهو واردٌ مع التّثنية والجمع ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ في حالِ أنّهما أولى بالإذعانِ لنا كما أذعنَ قومُهما الإسرائيليُّون، والعبادةُ هنا شدّةُ الإذلالِ في الأعمالِ؛ ويُحتمل أرادُوا عبادةَ فرعون كما يُعبدُ الصّنم، وعلى كُلٍّ استغلُّوا موقفَ قومهما المستضعَف لزيادة الطّعنِ في الرّسالةِ مضلّلين الرّأي العامّ بأنّ المتبوع لا يمكنُ أن ينقلبَ تابعًا؛ وأنّ السّلطة هي المعيار في كونِ المرء تابعًا أو متبُوعًا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ وكان آخر المطافِ معهم أن أصرُّوا على تكذيبهما فكانوا مع قومهم هالكين بالغرقِ بسببِ التّكذيب كما هلك من سبقهم، وفي بلوغِ هذهِ الآياتِ إلى مسامعِ الكفّارِ المكذّبينَ للرّسُول ﷺ تعريضٌ لهم بالعذابِ القريب ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ولقد بعثنا موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بالكتاب رجاء أن يهتدُوا، والكتابُ هنا التّوراة وتأخير ذكرِه بسببِ أنّه أوتيهُ بعدَ هلاكِ فرعون؛ أو بمعنى: إتمام الإتيانِ له بعد أن فرغتِ السّاحة من مُناوئيه، والآيةُ فرّقت تفريقًا لطيفًا بينَ موسى بكونه رسُولا يتلقّى وحيًا فخصّتهُ بالذّكروبينَ هارُون الذي هو نبيّ مؤيّد من الله مأمور بالتّبليغ فذكرته مع موسى آنفًا.

٩. ذكرُ شأنِ عيسى عليه السلام مع أمّه والتّنبيهُ إلى وحدةِ الرّسُلِ

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾

وبعد الإشارةِ إلى جعلِ الأقوامِ الظّالمين أحاديث عجيبة تصوّرُ حالهم السّيئة ذكر بالمقابل عيسى بن مريم وما كان له من شأنٍ حسنٍ ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ وجعلنا عيسى وأمّه الكريمة مريم - عليهما السّلام- أمارةً دالّةً على قدرةِ اللهِ بما أجرى عليهما من عجائب قدرته؛ والجمعُ بينَه وبينَ أمّه في الذّكرِ دلّ على أنّ المراد هنا بالذّات آية ولادته بلا أبٍ، ولذلك لم يذكره برسالته الإنجيل، إلا أن جعله آية فيه ما دلّ على صدقه في رسالته، وتنكيرُ آيةٍ للتّعظيم لكونها آيةً تضمّنت آياتٍ، وفي هذه الآية قدّم ذكر عيسى على أمه بخلاف قوله في موضع آخر: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] فقدّم ذكر

مريم، ففي الآيتين مخالفةٌ في التّقديمِ باعتبارِ المرادِ منها أصالةً في الموضعينِ، والتزم القرآن كثيرًا نسبة المسيح إلى أمّه ردًّا على النّصارى الذين عدّوهُ في مقامِ الألوهيّة، وردًّا على اليهود الذينَ اتّهموا أمّه بالزّنى ومقام المدحِ يأباهُ ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ و أنزلناهُما بمقامٍ طيّبٍ، والمراد بهذا الإخبار التّنويه بعنايته بهما، واختُلف في معنى الآية و أقربُ ما فسّرت بهِ أنّهُ: إيواءُ مريم وعيسى في بطنِها إلى مكانٍ آمنٍ ليولد فيه، ودلّت "إلى" على أنّه إيواءٌ ألجأ إليهِ الخوفُ من أمرٍ؛ ولعلّه اتّهامُ مريم قبل أن تنهض بولدِها ليحتجَّ لها، و"الرّبوةُ" ما ارتفع من الأرض؛ إشارةً إلى موضعِ أمانٍ لا يرى من فيهِ إلاَّ بصعوبةٍ وهو سهلُ الارتقاء دون الهضبةِ والجبل، وعدُّها ذات قرار تنبيهٌ إلى انبساطِها، و"معينٌ" وصفٌ للماء إذا جرى على سطح الأرض؛ فدلَّ على حياةٍ قائمةٍ فيها، وما يزيدُ تأييدًا لهذا التّأويل قوله لمريم: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦].

ولَمّا شُهرت النّصارى بالرّهبانيّةِ وكان عيسى عليه السلام على غيرِها؛ جاء بما أفاد توجيهًا لكلِّ الرّسلِ إلى التّنعّم بالطّيّب باعتدالٍ؛ وبما تضمّن ردًّا على المكذّبينَ في أنّ الرّسالة لا تكون في بشرٍ يأكلُون الطّعام بأنّ مُرسلِهم - الله - هو من وجّههُم إلى ذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ يا أيّها الرّسل أُحلّت لكم جميع الطّيّباتِ فكلُوا منها والتزموا الأعمال الصّالحة، والأمرُ "كلوا" للإباحةِ، والخطابُ توجّه لكلِّ رسُولٍ في زمانِه، وهو مع ذلك شمل أممهم؛ وكأنّه عرّض بأن من ظننتُموهم على الرّهبانيّةِ قائمون قد أبحنا لهم الطّيّباتِ؛ فأنتُم من بابِ أولى، وفي الآيةِ ما أفادَ تربيةً رفيعةً على الاعتدالِ في التّنعّمِ بما يلبّي مطالبَ الإقامةِ على الطّاعة؛ وبيانًا بأنّ طيّب الأكلِ يعينُ على العملِ الصّالح؛ وذلك لأنّ مستحلّ الحرام لا ينفكُّ يسقُط في شتّى المعاصي لجلبِ لُقمته التي تعسُر عليه ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ إنّي مطّلعٌ على جميع أعمالِكم، وتضمّن هذا تحذيرًا من جهةٍ ناسب إطلاقَ الإباحةِ في استغلال الطّيّباتِ؛ لأنّ شأن النّفوس التّسابق إلى استيفاء ما أبيح لها فأعلن رقابته عليها لعلّها تكبح جماحها، وتضمّنَ تحريضًا على العمل الصالح باعتبارِهِ إعلانًا عن علمه بالأعمالِ الصّالحة كي يُجازي عليها. وممّا وجّهنا إليه الرّسل و أتباعهُم: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ إنّ منهاج الإسلامِ الخالص هو منهاجُكم الواحد، وفي التّوكيدِ إثباتُ هذه الوحدةِ لتبطُل الهواجس التي تعترضُهم في شأنها بأنّه ما زالت مقاليدُها بين أيديكم، وإشارةُ القريب "هذه" تلويحٌ باتّضاحِ المشارِ إليه

وتيسّرِه ﴿وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ و أنا ربُّكم الواحد فخافُوني؛ والمراد فلتكن وحدةُ أمورِكم الدّينيّة حاملةً إيّاكم على الالتزام، لأنّ وحدةَ المنهجِ من أقوى الأسبابِ الحاملةِ على اتّباعه، والآيةُ من شواهِد إعجازِ القرآن البلاغيّ في نظمها أشمل الوصايا وأجمعها بأقصرِ تعبيرٍ وأجملِ لفظ.

ثمّ فرّع على أحوالِ الرّسلِ أحوال أقوامهم ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ فمزّقُوا صفّهم قطعًا إلى أديانٍ مختلفةٍ وكلّ دينٍ جزّأُوهُ إلى أحزابٍ وجماعاتٍ بعد أن وصلتهُم دعوةُ الرّسلِ التي تدعو إلى لمِّ الشمل، وفاءُ التّعقيبِ مع صيغةِ التّفعّلِ إيماءٌ إلى سرعةِ حصولِ ذلكم التّفرّقِ بهيئةٍ عجيبةٍ من التّمزّقِ تلو التّمزّقِ، و"أمرُهم":هو ما تعلّقَ بدينِهم، و"زُبُرًا" جمع زبورٍ وهو الكتاب؛ عبّر بهِ على طريقِ الاستعارةِ التّهكّميّةِ فإنّ الفرق أوّل ما تفكّرُ فيهِ بعد انشقاقها تسطيرُ منهجٍ لها؛ فصوّر كأنّه لو سجّل لصارَ زبورًا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ كلُّ فرقةٍ تناصرُ فكرتها وتغتبطُ لأتباعِها وتستبشرُ بقلّةِ نفوذِ غيرِها؛ فرحًا لم يقم على حجّةٍ وحقٍّ بل على باطلٍ، والآية تضمّنت تشنيعًا للتّفرّقِ في الدّين، وتحكي طبيعة الأمم في تفرّقِها بعد أن أُمِرَت بالتّوحّدِ، ولعلَّ معيار السّلامة هنا أن يتحوّلَ الفرحُ لأجلِ التّحزّب إلى فرحٍ من أجلِ التّوحّد.

ثمّ يتوجّهُ بالخطابِ إلى الرّسُول ﷺ يحدّثه في شأنِ قومه: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ فاترُكهم في غفلتِهم إلى زمنٍ غيرِ بعيدٍ يحلُّ فيه العذاب عليهم؛ وجعلهُ مبهمًا تلويحًا بحلُوله مباغتةً، والأمرُ هنا مفهومٌ منه توعّدُهُ لهم وتسليةٌ له ﷺ بإنهاء كبريائهم، والغمرةُ الضّلال والحيرة؛ مستعارٌ من هيئةِ الماءِ البالغ حدَّ القامةِ وصاحبُه يضطربُ فيهِ، وأضافها إليهم"غمرتهم" لإفادةِ انتسابِهم إليها حتّى صارت كأنّها من خصوصياتهم ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أيظنُّ أولئك الكفّار أولو النّعمة أنّ ما نُفيضه عليهم من الأموالِ والأولاد، والاستفهامُ للتّوبيخ ولإنكارِ أن يكون ذلك أمرًا صحيحًا، وحقُّ "أنّما" الفصل ووصلت لخطِّ المصحف لأنّ "ما" اسمٌ موصولٌ، وقدّم المال مع أنّ الأولاد أعزّ لأنّه يُؤتى إليهم جميعًا ويتجدّدُ إتيانُه بكثرةٍ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ تعجيلٌ منّا لخيرٍ يستحقّونه؛ بل هو محضُ امتحانٍ لهم واستدراج، وعبّر بـ"في" لإفادةِ أنّهم في الخيرِ قائمون ويزادُون إمدادًا، ويجوزُ تقديرُ رابطٍ أي: في الخيراتِ بهِ؛ أو عدُّ الكلام من قبيلِ وضعِ الظّاهرِ مقام المضمرِ؛ فأظهر الخيراتِ تنويهًا بقيمةِ ما

أوتوهُ ولم يقل: نُسارعُ لهم فيه ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غيرَ أنّهم لا ينتبهون إلى ذلك، والآية أشارت إلى أمارةٍ للأشقياء وهي اغترارُهم بما يكسبُون من الأموال والأولاد، وأمنُهم من مكرِ الله بالغفلةِ عنه.

١٠. بيانُ منهج المؤمنين وذمُّ المعرضين عنه

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣)﴾.

وبعد بيانٍ لخصالِ أهلِ الشّركِ وذمّهم عليها يذكر الله أهل الإيمان بنقيضها من المحامدِ شاكرًا لهم عليها ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إنّ المؤمنين الذين هم من أجلِ تقواهُم العظيم لله خائفُون من عذابِه، وأكّد الجملة اهتمامًا بما سيُخبرُ عنها، و"مِن" جاءت لمعنى: التّعليل أو السّببيّةِ،أي مشفقون بسبب خشيتهم لله، وإشفاقُهم و اقعٌ على أنفُسهم أن يمسّها العذاب، وحذفَ متعلَّق مشفقُون لظهورِه من المقام ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ والذين هم بما أنزل الله من آياتِه يصدّقُون وبما يرون من دلائل قدرته لا يكذّبون، وعبّر بالمضارع لإفادةِ أنّ أولئك ديدنُهم الإيمان كلّما وقفُوا على الآياتِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ والذين يعبُدون الله وحدهُ لا يُشركون بهِ شيئًا مطلقًا مهما حقُر؛ والشّرك الأكبر قد ابتعدُوا عنه من بابِ أولى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ والذين ينهضُون بعزيمةٍ إلى الأعمالِ الصّالحةِ وما افتُرض عليهم، وذهب بعض إلى أنّ الإتيان هنا أراد به تقديم الإنفاقِ المادّيّ لشيوعه في الاصطلاحِ القرآنيّ، وبين "يُؤتون و آتوا" جناسُ اشتقاقٍ، ولعلّ بين ما في أوّل السّورةِ من الخصالِ وهذهِ تعاضدا وتكاملا؛ فقد بدأ بصفةِ التّقوى التي هي دافعة إلى الخيرِ عاصمة من السّوء؛ ثمّ التّصديق الذي هو مفتاحُ معرفة الحقّ، ثمّ الإخلاص الذي هو شرط القبول؛ ثمّ انتهى إلى خصلةِ النّتيجةِ وهي التّشمّر إلى الأعمال ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ومع قيامهم بالأعمالِ السّابقةِ تجدُ قلوبهم خائفةً لعلّه حدث تقصيرٌ منهم أو لم يقبل الله منهم، وعن أم المؤمنين عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ قالت عائشة: أَهُم الذين يَشرَبُون الخَمر ويسرقون؟ قال: (لا يا بنت الصّدّيق، ولكنّهم الذين يَصُومون ويُصلّون ويَتَصدّقون، وهم يخافون أن

لا تُقبَل منهم).[7] ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ وخائفُون أنّهم إذا رجعُوا إلى الله لم يجدُوا رضوان الله وثوابَ أعمالِهم، وكلُّ أولئك صنفٌ واحدٌ وإنّما جدّد الاسم الموصول في المواضع الأربعةِ تنويهًا بشأنهم واهتمامًا بصفاتِهم؛ وكأنّهم كلّما قاموا بخصلةٍ من ذلك عدُّوا ناسًا غير الذين قاموا بغيرِها من الخصال، ولذلك الخوفِ وعدمِ ضمان القبُول هم على الخيرِ دائبُون ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أولئك شأنُهم المسابقةُ إلى الخيراتِ الباقية وهي خيراتُ الآخرة؛ أو الخيرات الطّاعات الموصلة إليها ، ونكتةُ الإشارةِ"أولئك" لتمييزِهم فإنّ أمثالهم جديرُون بأن يعرفُوا، واستعمل "في" دون "إلى" وكأنَّ طريق مسارعتِهم قد عُدَّ فاتحة تلك الخيراتِ باعتبارِه سببًا إليها، وهنا تعريضٌ بالمشركين الذين ذُمُّوا آنفًا بأنّهم يجدُون خيراتِ الدّنيا الفانية تُعجّلُ لهم وغيرُهم من المؤمنين يحظون بالخيراتِ الحقيقيّة ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ وأولئك سابقُون غيرهُم من الكفّارِ إلى ما أدركوا خيرهُ وتقاعسُوا دونه؛ وسابقُون أهل الإيمان إلى كمالِه فحازُوا درجاتٍ أعلى فيه، و"لها" بمعنى: إليها، وهذا تأكيدٌ للمسارعةِ، فرسم بدايةً صورةَ انطلاقِهم في ميدانِ الاستباق وزادَ هنا بيان صورته وهم يسعون لمحاولةِ إتمامه، ويجوزُ حملُ السّبقِ على النّيلِ لأنّه مفضٍ إليه؛ بمعنى: وهم بها فائزون.

ولَمّا كان مضمارُ العملِ الصّالحِ مظنّة وجودِ المشقّةِ وتكليفِ النّفس بما لا يُطاق قال: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ولا نُحمّل مكلّفًا بتكليفٍ إلاّ ويكونُ في نطاقِ قدرته؛ على معنى الحثِّ أي: فاجتهدُوا؛ أو على معنى: الإرشادِ لإعطاءِ النّفس مقدارها الذي تُطيقُه كي تكمل مشوارَ سباقِها، أو على معنى جبر الخواطر المنكسرة للذين يريدُون الاجتهاد فلا يجدُون وُسعًا، وعبّر بالنّفسِ إطلاقًا ليعمّ كلّ أصنافِ المكلّفينَ تقريرًا بأنّه سنّةُ الله في خلقِه حتّى في غيرِ الإنسِ، وجاء به مفردًا لأنّ التّكليف منصرفٌ إلى الذّوات مناسبةً لذكرِ التّسابُق الذي ينفردُ كلٌّ فيه بنقطتِه ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ وعند الله تسجيلُ أعمالِ العبادِ بالعدلِ والإنصافِ، والكتابُ هنا مجازٌ عنِ التّقييد والضّبط؛ ويجوزُ أن يكون على الحقيقةِ على صورةٍ تُناسبُ حفظَ كُلِّ أعمالِ العبادِ ووسائلُنا المعاصرة تُقرّبُ إمكانية ذلك؛ وتنوينُ "كتاب" لتفخيمِ شأنه، ودلّت "لدينا" على حفظه عند الله بحيثُ لا يمسُّ ولا يتغيّر، والكتابُ لا ينطقُ وإنّما عبّر بذلك مجازًا عن قوّةِ إفصاحِه عن الحقائق شأنَ من يجيدُ النّطقَ والإفصاح ﴿وَهُمْ

---

[7] رواه الترمذي، ك: تفسير القرآن، ب: ومن سورة المؤمنون، ر: ٣١٧٥، (١٨٠/٥).

لَا يُظْلَمُونَ﴾ والله لا يظلمُ الأشقياء بزيادةِ عذابٍ ولا يظلمُ السّعداء بالإنقاصِ من ثوابٍ، كما لا يظلمُ أحدًا بالتّكليفِ بما لا يُطاق ولا بالحسابِ عليه.

ثمّ يعودُ إلى الحديثِ في شأنِ الكفّار ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ غير أنّ الكافرين في غفلةٍ عن هذا البيانِ في القرآن، ويجوزُ عود الإشارةِ إلى ما سبقَ من مسألةِ تسجيلِ الأعمال أو لحوقِ أهلِ الإيمان فيما عُدَّ لهم من الخصال؛ والعبرةُ مناسبةُ اسم الإشارة للقريب لأقربِ ما ذُكر، والغمرةُ الغفلةُ؛ استعيرت من حالِ الذي غمرهُ الماء حتّى كاد يموتُ اضطرابًا كما سبق ذكره في آية متقدمة ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ ولأولئك الكفّارِ أعمالٌ غير ما قُصّ عليكم من الشّركِ والكفرِ والتّكذيبِ؛ والمرادُ بهذا الإعلام تهويلُ حالِهم، وفي "لَهم" معنى: الاختصاص؛ وفي تقديمه ما أفادَ القصر أي أعمال لا يعملُون غيرَها، و"دون" بمعنى: غير؛ وتحتملُ معنى التّحتيةِ كذلك أي هي أعمالٌ أقلّ درجةً لم تذكر لكم لذلك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ هم دائبُون على ارتكابِها لانغماسِهم فيها، وقدّم "لها" على متعلّقه تحسينًا للفاصلةِ وللاهتمام بتسجيلِ قبائحهم عليهم، وأوردَ الجملةَ اسميّةً لإثباتِ مدلولها، وفي "أعمال مع عاملُون" جناس اشتقاق.

١١. وعيدُ الغافلين عن القرآن المناوئين للرّسُول ﷺ

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾.

وبعد بيانِ الغمرةِ التي وقع فيها الكفّاربيّن غايةَ بقائهم فيها ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ بقوا على غفلتِهم حتّى أهلكنا ذوي التّرفِ منهم بعذابِ الاستئصالِ فإذا بهم يصيحُون ويستغيثُون؛ أو المأخوذون بدايةً المترفُون وغيرُهم بسببِ أخذِهم يصيحُون ويستَغِيثُون، والعذابُ ينالُ الكلّ وخصّ أهل التّرفِ بالذّكرِ إيماءً بأنّهم سببُ العذابِ بتضليلِهم؛ ولأنّهم أسوأُ حالاً ووقعُه عليهم أشدّ، و"يجأرُون" من الجؤارِوهو رفعُ الصّوتِ جزعًا، والعذابُ دنيويٌّ وقيل: أخرويٌّ ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ لا فائدةَ من صياحكم يوم حلولِ العذابِ، والنهي"لا تجأروا" مستعملٌ في معنى تسويةِ صياحِهم بعدمِه، وذكرَ "اليوم" إشارةً إلى خصوصيّةٍ فيه مبالغةً في إقناطِهم، والجملةُ مقولُ قولٍ محذوفٍ تقديرُهُ: قائلينَ لهم: لا تجأرُوا؛ وعلى أنّ العذاب دنيويٌّ لا قولَ يُنقلُ في الحقيقةِ و إنّما يجدُون أثرهُ في أنفسِهم إذا أحسُّوا إعراض الله عنهم وإهمالَه لهم في العذاب ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ فليست لديكم قوّةٌ ستدفعُ عنكم عذابنا، وتضمّن النّصرُ هنا معنى الإنجاء فعدّيَ بـ"من"، وأكّد الجملةَ إحباطًا لكلّ أماني النّجاةِ فيهم، وقدّم "منّا" على متعلّقِه اهتمامًا بجانبِ الله ولتجويد الفاصلةِ ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ كيفَ تنصرُون اليوم وقد كانت آياتُ القرآنِ تتلى عليكم فتعرضُون عن سماعِها، وتضمّن هذا الإخبار بعث النّدمِ فيهم، والأعقاب جمعُ عقبٍ وهو مؤخّرةُ الرّجلِ، والنّكوص الرّجوع على الأدبارِ؛ مثّل حالهُم في الإعراض بحالِ الرّاجعِ على طريقِه حين اعترضه ما لا يريدُه، وقال "كُنتُم" وجاء بفعلِ "ينكصُون" مضارعًا لإفادةِ أنّ ذلك كان من شأنِهم كثيرَ التّجدّد منهم ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ متكبّرينَ بسببِ ما يُتلى عليكم؛ فالباءُ سببيّةٌ، أو هي بمعنى "عن" أي عن الرّسُول ﷺ أو القرآن، والسّينُ والتّاء للمبالغةِ، وذهبت طائفةٌ من المفسّرين إلى أنّ ضمير "به" عائدٌ إلى مكانِ تلاوةِ النّبيّ للآياتِ عليهم وهو المسجد الحرام؛ على معنى الظّرفيّةِ أي: مستكبرين فيه وهو موضع القنوتِ لله باتّباع آياتِه، أوعلى معنى السّببيّةِ أي: مستغلّين شرفَكم بالحرم لتتكبّرُوا، وفي كلّ ذلك ما تضمّن ذمًّا لهم ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ تتسامرُون ليلاً ذاكرينَ القرآن بأقوالِ السّوءِ كالسّحرِ والكذبِ، وسامر اسم جمعِ السّامرينَ كالحاجّ والحاضر للحجّاج والحاضرين، من سمرَ إذا جلس متحدّثًا تحت ظلّ القمرِ؛ وشنّعهم بهذا لأنّ اللّيل أوفر حظًّا من النّهار للمحادثة، أو نُصبَ على نزعِ الخافض أي حذف حرف الجر، وهو اسمُ مكانِ السّمرِ أي: في سامركُم تهجرون، و"تَهْجُرون" تقُولون

الهُجْر من القولِ وهو أقبَحُه لأنّه يُسبّبُ القطيعة، وحاصلُ المعنى: كنتُم تعرضُون عن الآياتِ مستكبرينَ في الحرمِ سامرينَ بأقوالِ السّوءِ.

وفرّعَ على كشفِه لأحوالِهم السّيئة تقريعَهم باستفهامٍ تلو الآخر عن سببِ بقائهم معرضين ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أغفلوا فلم يتتبّعُوا معاني القرآن الذي تسامرُوا باطلاً فيه فيعرفُوا أنّه الحقّ؟ والاستفهامُ في المواضع الأربعةِ للإنكارِوالتّوبيخ، و"القول" القرآن بدليلِ السّياق، و"يدّبّرُوا" من التّدبّرِ وهو اتّباع دُبر الشّيء؛ وهو في مجالِ النّظرِ والاستدلال: إعمالُ العقلِ في الدّلائل ومدلولاتها ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أم يعتقدُون أنّه قد جاءهم في القرآنِ ما لم يسمعُوا عنه في أجدادِهم السّابقين فتحفّظوا عن الأخذِ به؟ والمراد توبيخهم على شدّةِ تمسُّكهم بمورُوثِ آبائِهم على فسادِه حتّى صارَميز انًا يحتكمون به؛ فلمّا جاء القرآن يدعو إلى خلافه رفضُوه، و"أم" للانتقالِ من توبيخٍ إلى آخر، و أتى بتوبيخينِ متعلّقينِ بالقرآنِ ثمّ بتوبيخين متعلّقين به ﷺ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أم يزعمون بأنّ محمّدًا ﷺ المرسل إليهم لا يعرفُون نسبه وصدقه فهم ينأون عنه اتّقاءً لفتنته ظاهرًا؟ وفي باطنِهم أنّهم يودُّون رفضَ دعوته، وفي هذا الإنكارِوسابقه ما يعني أنّ إنزال الله للكُتب واصطفائه للرُّسلِ وإرسالهم سنّةٌ إلهيّةٌ قديمةٌ ليست ثمّةَ من سبيلٍ إلى إنكارِها ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أم يحسبُون بأنّ الرّسُول ﷺ الذي جاءهم بالنّورِقد مسّه ضربٌ من الجنُون؛ وهم يعلمون بأنّه أعقلُهم وأحكمُهم، والإنكارُبهذهِ الاستفهاماتِ تضمّنَ تخطئةً لهم بأنّ الغفلة عن مثل هذهِ الأمور الجليّة لا تحصُل من العُقلاء وقد حصلت منكم؛ فهل أنتُم عُقلاء؟ ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ لا شيء ممّا قيل يصحُّ تعليلاً لبقائهم على الإعراض وتفنّنِهم في العناد؛ وحقيقةُ الأمرِ أنّ الرّسُول ﷺ جاءهم بالمنهج المبينِ من الله، ذلك المنهج الذي لم يلتبس بشيءٍ من أباطيلِهم التي يُناصرُونها ويُجادلُون بها ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وأغلبُهم يكرهُون دينه الجديد بغيًا على الحقّ وحسدًا على الخلقِ واستحبابًا للبقاءِ على الهوى القديم، وقيل: الكثرةُ هنا بمعنى الكلّ؛ لأنّه وإن لم يتوجّه كرههم جميعًا لذاتِ الحقّ فقد توجّه لإحدى متعلّقاته؛ فليس أقرباء الرّسُول ﷺ المدافعون عنه ونحوُهم أولياء للحقّ ما داموا تحت مظلّةِ الشّركِ، وقدّم ذكر الحقّ اهتمامًا بشأنِه؛ وليقع التّعجّب من كارهيه إذا ذكر بعدهُ كرههم له.

ولَمّا شنّع عليهم إعراضهم البعيد عن الحقِّ وكان السّبب الرّئيسيّ فيه أهواءهم نبّه إلى أنّها غير معتبرةٍ في ميزانِ الحقِّ ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ولو جاء القرآن الذي هو دستُور البشر مو افقًا لأهوائهم لكان ذلك إخلالا بنظامِ الكونِ كلّهِ، ويحسُن تقديرُ: ولو اتّبع مُنزِل الحقِّ، ووجهُ ذلك أنّ تلك الموجودات كلّها بنظامِها تسبّحُ بحمد الله وهي مسخّرة للإنسان؛ فإذا لم تنزل آياتُ الحقِّ مو افقةً لنظامِ تسبيحها وجاءت ملبّيةً أهواء الضّالّين المختلفة لم يبقَ لها ما يحفظها، فمثلاً المعجزاتُ التي يودُّون حصُولها لو ساعفهم الحقّ فيها للزم أن تقوم العوالم الفوقيّةُ والمخلوقات الأرضيّة لتلبيةِ أهوائهم المختلفةِ فيها والمتضاربةِ بينهم والمتقلّبةِ بين حالٍ وآخر؛ وفي ذلك فسادٌ عظيمٌ لنظامها المحكم ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ ليس القرآنُ متّبعًا أهواءهم بحالٍ؛ بل جئناهُم به واعظًا ليُذكّرهم بهدفِ خلقِهم والغايةِ منهُ حيثُ أنساهُم إيّاهُ تقادُم الزّمن و اندراسُ تعاليمِ الرّسالاتِ السّابقة، وأضاف الذّكر إليهم لإفادةِ معنى أنّه نزل من أجلِهم وإن كانُوا من أصغرِ العوالِم؛ وعلى هذا فُسّر الذكر عند بعضٍ بالشّرفِ كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزّخرف: ٤٤] ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ فهم عن القرآنِ يصدُّون، وأعاد "ذكرهم" تنويهًا بعظمةِ القرآن ليبعث على التّعجيبِ منهم: كيفَ يصدُّون عنه؟ وقدّم الجارّ والمجرور على متعلّقه للخلوص إلى معنى القصرِ: أي عنهُ لا عن غيرِه معرضُون، واستعمل الجملة اسميّةً لتثبيتِ حصول إعراضِهم.

ثمّ يتّجهُ بالكلام إلى الرّسُول ﷺ معرّضًا بالمشركين بإنكارٍ آخر يتبعُ ما سبقَ من أسبابِ إعراضهم؛ لينفيَ أن يكون شيئًا منها جاء من جهتهِ ﷺ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ لعلّك أيّها الرّسُول تطلُبُ منهم أجرًا على التّبليغ فاستثقلُوا دفعه أو ضعفُوا عنه؟ وتضمّن الاستفهامُ الإنكاريّ تهكّمًا بهم ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ فأجرُك عند الله أوفر حظًّا من كلِّ أجرٍ دنيويٍّ؛ فكيف لم ينتهُوا أنّه لا يُمكنُ لمثلك أن يطلُب الأدنى ويفوّت على نفسه الأرقى والأبقى! والخَرْجُ العطاء المعيّن المستمرّ؛ والخراج مثله خولف بينهما تفنّنًا؛ وقيل: الخراج ما كان عطاءً أوسع ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ والله هو خيرُ من يهب من أفضلِ ما يوهب لأنّه مالكُ بيدِه كلُّ شيءٍ، والجملة اعتراضيّةٌ سيقت لنكتةِ الثّناء تثبيتًا لمعنى الآية قبلها ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ و إنّك في حقيقةِ الأمرِ تناديهم لاتّباع منهجٍ قويمٍ فيه سعادتُهم ونجاتُهم لو فقِهُوا ذلك، وهنا استعار الاستقامة الحسّية للطّريقِ ليصفَ بها منهج الإسلام المعتدل وكأنّه طريقٌ

مستقيمٌ نراهُ أمامنا، وأكّد الكلام تثبيتًا له ﷺ لأنّ شدّةَ مكابرتِهم تهزُّ قلب الدّاعية الحليم الرّاسخ وتجعلُه بإشفاقه عليهم يبحثُ عن كلِّ طريقةٍ لجلبِهم ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ وإنّ المكذّبين بالبعثِ لبعيدُون جدًّا عن كلِّ طريقٍ يوصلُ إلى الحقِّ؛ والمراد: فالحقُّ ما تدعوهم إليه فلا ترجُ لهم غيرهُ فهو لا ينفعُ، والنّاكب عنِ الطّريقِ المائلُ عنه؛ مشتقٌّ من المنكب لأنّه يميلُ عند الانعطاف، ووضع الظّاهر مقام المضمر فلم يقل: إنّهم؛ ليبيّن سبب ميلِهم عن الصّراط.

وبسببِ ابتعادِهم عن الصّراطِ المستقيم واستقرارِهم في الضّلالةِ هم يتلقّون إنذاراتِ الله وعقوباته فيتضرّعُون إليهِ ليرفعها عنهم؛ وهذا لم يذكرو إنّما عُلم من المقام، فحكى الله موقفه تجاه تضرّعهم ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ ولو رحمهم الله وفرّج عنهم آلام الضّرّ الذي يُصيبُهم به، والموقفُ هنا بيانٌ لما سيحدُث بعد كشفِ الضّرِ من طبيعتِهم المتأصّلة في العودةِ إلى الطّغيان؛ وليس بيانًا لسببِ عدمِ رحمتِهم حيثُ كانُوا لا يستفيدُون من مدرسةِ الضّرّ، وفائدةُ هذهِ التّفرقةِ أنّ المقام جاء لتبيينِ سنّته العادلةِ فيهم مع كلِّ طغيانِهم؛ ليُفهم أخذهُم بالعذابِ الشّديد الذي سيذكُرُه ﴿لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ لعادُوا إلى ضلالهم وكبريائهم على الحقِّ واستمرُّوا فيه، و"لَجُّوا" من اللَّجاج وهو الاستمرار في السّوء وعدم الإقلاع عنه، والعَمَه الاضطراب في الأحوالِ السّيّئة، وقدّم "في طغيانِهم" على متعلّقه"يعمهون" اهتمامًا بتسجيلِه عليهم ومراعاةً للفاصلة، ويتبادرُ سؤالٌ عن دليلِ استمرارِهم في الطّغيان فيأتي جوابُه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ولقد أصبناهم بأنواعٍ من العذابِ الأدنى فلم يستفيدُوا من امتحانِ الضّرِ بعد كشفه بل نسبُوا ذلك إلى الطّبيعةِ والأسباب واستمرُّوا في عتوّهم، والآيةُ هذهِ تأكيدٌ لمضمونِ ما قبلها؛ فعدم رحمتِهم المذكور في الآية السابقة هو العذاب المذكور هنا، وذكرُ الاستمرار في الطّغيان هو حال عدمِ الاستكانةِ والتّضرّع ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهم على تلك الحالِ من الطّغيانِ وعدمِ الاعتبارِ بالضّرّ حتّى إذا انتهت فرصُهم أنزل الله عليهم عذاب الاستئصالِ المفاجئ الشّديد فأخذهم، والتّعبيرُ بفتحِ البابِ كنايةٌ عنِ المباغتةِ بالشّيءِ، وإذا فسّر العذابُ هنا بالأخرويّ -كما ذهبَ إليهِ بعضٌ- فهو فتحٌ حقيقيٌّ لأبوابِ جهنّم؛ واختار هذه الصّورةَ لبيانِه على سبيلِ التّخويف به وكأنّهُ محبُوسٌ في مكانٍ ففتحَ

عليهم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ إذا هم بوقوعهم فيه آيسُون من النّجاةِ منه، و"مبلسُون" من الإبلاسِ وهو اليأس من كلِّ فرجٍ؛ ومنه سمّي إبليس لأنّه حُرِم رحمة الله، وعبّر بالجملةِ الاسميّةِ إثباتًا لإياسهم.

١٢. بيانُ دلائل عظمةِ الله ووحدانيّتِه وقدرتِه على البعثِ

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾.

ومناسبةً لذكرِ الإعراض ومآلِ أصحابِه يمتنُّ علينا بأدواتِ التّفكّرِ والتّدبّرِ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ والله هو الذي خلق لكم آلة السّمعِ وآلة الإبصار وآلة الإدراك، وخصّ امتنانه بهذهِ الثّلاث لشرفِها وأهمّيّتها في تحصيلِ المعرفةِ، و أفرد السّمع تفنّنًا أو لأنّه ينصرفُ إلى الأصواتِ فقط بخلافِ الأبصارِ والأفئدةِ فأحوالُ عملها متعدّدة، والظّاهرُ أنّ الخطاب عامّ وإن جازَ أن يوجّهَ إلى المذمومين بالإعراض من قبل، واختار التّذكير بالإنشاء كأنّه عدّ المهملين لهذهِ الأدوات كمن لا يعرفُ أنّه يملكُها فذكّرهُ بأنّه قد جعلها فيه؛ بأسلوب قصرٍ يُفهمُ منه أنّ الله هو من جعلها فيكم لا غيرُه ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ خلقَ لكم ذلك في حالِ أنّ شكركم لله باستخدامِ تلك الآلات فيما خلقت من أجله قليلٌ، وعرفت القلّة من مقابلتِها للنّعمِ الكثيرةِ التي تقتضي الشّكر، وذكرُ القلّةِ تحريضٌ للاستزادةِ من شكرِ النّعم، و"ما" صلةٌ جاءت بعد التّنكيرِ لتأكيدِ القلّةِ وتقريبِها من منزلةِ العدم ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ والله هو الذي خلقكم في هذهِ الأرض المسخّرةِ للحياةِ وجعلكم تتعاقبُون فيها أمّةً بعد أخرى، وأصلُ الذّرء البثّ واستعير لمعنى الخلقِ لأنّه سببٌ له، وكرّر ضمير

الجلالة مع الاسمِ الموصولِ"وهو الذي" تقويةً للامتنانِ، وفي نسبِ الخلقِ له وحدهُ تذكيرٌ بوجوبِ إفرادِه بالعبادةِ إذ هو الخالق لا غيرُه؛ واستدلالٌ للبعثِ لأنّ المبدئ قادرٌ على الإعادةِ؛ وقد قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وإليه لا إلى غيرِه تجمعون يوم القيامة للعرض والحساب؛ فاستعدُّوا بالإيمان والشّكر، وبينَ الحشرِ والبثِّ مقابلةٌ دقيقةٌ تُؤذنُ بوجود محسّن الطّباق ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وهو الذي يبدعُ أصناف المخلُوقات الكثيرة ويعمّرُها في الأرض وبيدِه وحدهُ أمرُ إماتتها، وعبّر بالمضارع في الفعلين لإفادةِ تجدّدهما الدّائم المنبئ عن عظيم قدرته، وذكر هذا بعد الحشرِ استدلالاً للبعثِ بأنّ الله لهُ مطلقُ التّصرّفِ في خلقِه بل في أعظمِ الأمورِ وهما الإحياءُ والإماتة، ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ولله وحدهُ أمرُ التّصريفِ في تعاقبِ اللّيلِ والنّهارِ عليكم، وفي طيّاتِ هذا الاختلافِ تذكيرٌ بنعمٍ كثيرةٍ تقُوم على مدارِه، وذكرُ هذا بعد الإحياءِ والإماتةِ إيماءٌ إلى البعثِ الأصغرِ والموتة الصّغرى أي الاستيقاظ والنّوم إذ هما من دلائل البعثِ أيضًا. و أنزل من لم يتدبّر في صريحِ هذهِ الآياتِ منزلةَ من لا يعقل فخاطبهُم على أسلوبِ الإنكارِ بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتفكّرُون في تلكم المظاهر الدّالّة على قدرة الله ومنها الإحياء والحشر بعد الإماتة لتدركوا قدرته فتعبُدوهُ وحدهُ لأنّه صاحب الكمالاتِ وحدهُ.

ولمّا انتقل من التّقريعِ الذي كان بأسلوبِ الخطابِ التفتَ إلى أسلوب الغيبةِ مناسبةً لحكايةِ ضلالِهم الذي يُوحي بإبعادِهم فقال: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ليس شأن أولئك التّفكّر من أجلِ الإيمان بل شأنُهم أن يتّبعُوا ما ترك أسلافُهم الأوّلُون وأن يقُولوا ما قالُوهُ، وليس المرادُ هنا مجرّد القول لأنّ الذّمّ متعلّقٌ بما تأصّل فيهم من اعتقادِهم لما يقُولون ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ قالوا: هل إذا متنا وصارت أجسامنا ترابًا لم تبق منها إلاّ العظام سنُبعثُ من جديدٍ؟ والاستفهام مسوقٌ للاستغراب والإنكارِ، و"قالُوا" هنا عائدةٌ إلى الكفّارِ المذمومين ويجوزُ عودُها إلى قولِ أسلافِهم؛ وعلى كلا الحالين أعيدت لنكتةِ التّعجيب من مقولتِهم، وذِكرُكونهم ترابًا وعظامًا بعد ذكرِ الموتِ تنويهٌ بالتّلاشي الكلّيّ تقويةً للإنكار، والتّأكيدُ في "إنّا" حكايةٌ منهم لمن يؤكّدُ لهم البعث؛ حكوهُ بهذا حينَ أنكر عليهم استبعادهم الشّديد له، والأصلُ في الإنسان أنّه يحبّ العيش مرّةً وأخرى إلاّ أنّ هؤلاءِ ينكرون البعث مكابرةً لما يفصّلُ لهم من شأنِه العظيم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ لقد وعدنا مُحمّدٌ بهذا البعث بعد الموت كما وعدت الرّسل السّابقون آباءنا به ولم نر لهذا

الوعدِ أثرًا من الحقيقةِ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ لا يكون هذا الادّعاء إلاّ من قبيل حكاياتِ الأقدمين الباطلةِ ولا يصحُّ نسبُها إلى الله، وأساطير جمعُ أُسطورةٍ وهي القصّة المكذوبة؛ ووزنُ "أفعولةٍ" يغلُب فيما يرادُ بهِ التّندّر لغرابتِه المتلبّسة ثوبَ الحقيقةِ، وعبّرُوا بأسلوبِ القصرِ إعلامًا منهم بأنّهم قد حَسَموا أمرَهم في المسألةِ ولم تبقَ محلَّ نظرٍ، ولم يقُولُوا: إن هو؛ واستعملُوا اسمَ الإشارةِ"هذا" لتمييزِ ما أرادُوه من دعوةِ البعثِ فيقع حُكمهم عليها جليًّا ناطقًا.

وبعد بيانِ إنكارِ الكفّارِ لحقائق الرّسل كالبعثِ أمر رسُوله ﷺ بأن يدفعهم إلى الاعتراف بأنّهم ينكرُون ما في قرارةِ أنفُسهم أنّه ثابتٌ و اقعٌ ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ اسألهم أيّها الرّسُول ﷺ: من مالكُ هذهِ الأرض الفسيحة والمتصرّفُ في شؤونها وشُؤون من فيها من المخلُوقات؟ واستعمل "مَن" تغليبًا للعقلاء، وهذا الاستفهامُ وأمثالُه القادمة تقريريٌّ؛ بمعنى: أجيبُوا مقرّين بما حصل لديكم من أنّها لله، وليس المراد اجمعهم في الحالِ لقولِ ذلك؛ بل هو تلقينٌ لأسلوبِ مجادلتِهم لاستعمالِه عند اقتضاء الحاجة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وجوابُ الشّرط محذوفٌ اكتفاءً بنطقِ المقام به وتقديرُه: فأنبئوني، وهنا دعوةٌ لهم إلى التّأمّلِ المفضي إلى العلمِ لأنّ اختفاءَ الحقيقةِ في مثلِ هذا كثيرٌ لاعتياد النّاسِ على التّعلّقِ بالأسبابِ، فإن فكّرُوا بحقٍّ فسيقُولوا غيرَ متأخّرينَ إنّها لله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيُجيبُون بأنّها ملكٌ لله وحدهُ؛ والمعنى أنّهم لا بُدّ سيعتقدُون ذلك سواء صرّحُوا به أم كتموه، والسّينُ هنا وفيما يأتي من مثله تضمّنت معنى تأكيد حصولِ القولِ ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قل لهم أيّها الرّسُول ﷺ أفلا تستنتجون بأنّ من بيدِه ملك الخلائق قادرٌ على بعثِهم كما قدرَ على إماتتهم؟ والاستفهامُ هنا وفي نظائرِه الآتية واردٌ لمعنى الإنكارِ والتّوبيخ، وعبّر بالتّذكّرِ هنا لأنّه نتيجةُ النّظرِ في الدّلائل ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ واسألهم يا مُحمّد ﷺ من الذي أنشأ السّماوات العظام ورعى نظامها و أنشأ عرشهُ العظيم؟ وجدّدَ لفظ "ربّ" تقويةً لمعاني عظمتِه في الكلام الذي سيق لذلك الغرض، وقرن العرش بذكر السّماوات ليفيد بأنّه متعلّقٌ بها؛ فهو كنايةٌ عن استواء الملك لهُ؛ وذلك وجهُ الاستدلال به على قدرته مع أنّ العرش غيرُ مدركٍ كالأرض والسّماواتِ، كأنّه قال: من المتصرّف في أعظمِ مُلكٍ؟ ويجوزُ أن يكون بمعنى الكرسيّ دون اعتقادِ أنّه يجلسُ عليه -تعالى الله- كما يقال: بيتُ الله ولا نعتقدُ إقامته فيه، والمرادُ فيما مرّ تقريرُ أنّ من شأنُه الخلقُ والتّصريف أولى بأن يُعبد

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقُولون ذلك لله وحدهُ؛ أي الإنشاء والرّعاية المفهومان من لفظِ الرّبوبيّة، لأنّ المراد جوابُهم كان بهذا معنى لا لفظًا، ولعلَّ القرآن راعى الإيجاز فأورد ما لبّى غايةَ جوابِهم، ولَمّا استوعب نسبةَ كلِّ شيءٍ إلى ملكِ الله لم يبق لهم من بُدٍّ إلاَّ أن يكونوا عبيدَ الله وحدهُ؛ فاختارَلهم هنا الدّعوةَ إلى تقواهُ ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ قل لهم أيّها الرّسُول ﷺ: أفلا تخشون الله لعظمتِه وتستحون من الإعراض عن ساطِع دلائله ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقل لهم أيّها الرّسُول ﷺ من الذي ملك كلّ شيءٍ في هذا العالم الذي نحن فيه خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا وبيده خزائنُ كلِّ شيءٍ؟ ويدُ الله كنايةٌ عن قدرته، وملكوت مبالغةٌ في وصفِ الملكِ بزيادةِ واوٍ وتاءٍ، ذكرَ هذا توكيدًا لدلالةِ الاستيلاءِ على العرش السّالفة وليُمهّدَ لقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ الرّبّ الذي يدفعُ الضّرّعمّن استغاثه من خلقِه ولا يستطيعُ أحدٌ أن يدفع عن الخلقِ ضرّهُ وعذابه، و"يُجيرُ" من أجار فلانًا من فلانٍ إذا منعه منه وحميه، وورد "يُجارُ" مبنيًا للمجهول لتعميمِ انتفاءِ الفعلِ عن كُلِّ فاعلٍ، و"على" بمعنى: من، وفي الآيةِ ما عُرف عند أهلِ البديع بطباقِ السّلبِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتُم تعلمون ذلك فأجيبوني، ويُلاحظُ أنّ السّياق أورد هذه الاستثارة إلى التّأمّلِ المحصّلِ للعلمِ في المواضِع التي هي محلّ بحثٍ واستنطاقٍ دون الظّاهرةِ لذاتِها ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقُولون ذلك الملكوت وتلك القوّة لله وحدهُ؛ أي القوّة المفهومة من الإجارة ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ قل لهم أيّها الرّسُول ﷺ كيف تخدعون فلا تتّبعون الحقّ مع علمكم به؟ والاستفهام هنا إلى معنى التّعجّب أمْيَلُ، وعبّربالسّحرِعلى سبيلِ الاستعارةِ لحالِ المخدوعِ بألاعيب السّحرةِ، وبدأَ بالتّوبيخِ على عدمِ التّذكّربأقربِ ما حولهم من الأرض ومن فيها ليُوقظ ضمائرهم؛ ثمّ وبّخهم ارتقاءً على عدمِ تقوى الله مشيرًا إلى ملكه الأعظم؛ ثمّ عاتبهُم جملةً على تغريرِ عقولِهم بعدَ انجلاءِ الحقِّ لها، وفي الآيةِ ما دلّ على مجادلةِ الكفّارِوإدحاضِ أباطيلِهم، وكرّر"قل" كلَّ مرّةٍ اهتمامًا بكلِّ احتجاجٍ ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لم يكن أولئك ينقُصهم عرفانٌ بالحقائق التي تُعرضُ لهم ولم يكن ما تحكيهِ الرّسل عليهم أساطير الأوّلين؛ بل قد جئناهُم بالدّلائلِ الواضحة على ما ندعوهم إلى الإيمان به كالبعثِ وغيرِه، وإنّهم ليحملُون أنفسهم على تكذيبِ ما استقرّ فيها من الحقائق، وأكّد الكلام تحقيقًا لما يُخبرُبه.

ومع قُربِ خواتِيم السّورةِ التي عالجت كثيرًا من قضايا الشّركِ يوردُ ما ينزّلُ منزلةِ الخلاصةِ لما تقدّم ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لم يجعل الله لنفسه ولدًا إطلاقا لا من الملائكة ولا من البشرِ ولا من غيرِهم، وبدأَ بنفيِ الولدِ لأنّه شركٌ يرونَ أنّ حجّتهم فيه أقوى؛ وليهتمَّ بنفيِ أرقى عقائدهم فإنّ منهم من ترفّع عن الخضوعِ للصّنمِ لكن اعتقد أنّ لله ابنًا أو بنتًا ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ ولم يكن يُشاركُه في ملكه أيُّ إلهٍ تعالى الله عن ذلك، و"مِن" بتكرّرها صلةٌ لتأكيد نفيِ الولدِ والشّريك، والجمعُ بينهما نوعٌ من الاستقصاءِ لكلِّ عقائدِ الشّركِ التي ما يزال لها أثرٌ إلى وقتنا المعاصرِ ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ هب أنَّ ذلك صحيح إذا سينفردُ كلُّ إلهٍ بنظام خلقه؛ وهذا الاستقلالُ مظنّةُ النّقص الذي ينافي الألوهيّة إذ ستنحصرُ مُهمّةُ كلِّ فيما انفرد به، و"إذن" حرفُ جوابٍ لما سبقَ على تقديرِ: لو كانَ معهُ إلهٌ لذهبَ كلّ إلهٍ بما خلقَ، ولم يُقم استدلالاً على نفيِ الولدِ لأنّ اتّخاذ الولدِ يُفضي إلى مشاركةِ المولودِ لوالدِه في الألوهيّة وذلك عينُ الشّرك؛ فاكتفى بإبطالِ الأعمّ ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وسيتعالى بعضُ الآلهةِ على البعض الآخر يريدُ قهرهُ وبسطَ نفوذهِ عليه؛ وهذا أثرٌ آخر للاستقلالِ المتفرّع عن تعدّد الآلهة؛ وهو أشبه بأحوالِ ملوكِ الدّنيا مع بعضِهم؛ فالآية تقرّبُ تلك النّتيجة المفترضة بأمرٍ حاصلٍ مشاهدٍ كي تقرّر بأنّها نتيجةٌ حتميّة ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تقدّس الله وتنزّهَ عمّا يصفه به الغافلُون من خلقِه من صفاتِ النّقصِ؛ فَانتظامُ الكونِ و انسجامُه دلَّ على أنّ وراءه مسيّرًا واحدًا، وتلك الصّفاتُ نتيجةُ الاعتقادِ الخاطئ الذي أوقعهم في الشّركِ وغيرِه ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ والله لم يكن عن الخلقِ غافلاً يعلمُ ما غاب عنهم زمانًا أو مكانًا ويعلمُ ما يقعُ بينهم حاضرًا، والتّعريفُ في "الغيبِ والشّهادةِ" لإفادةِ الاستغراقِ الحقيقيّ؛ وبينهما طباقٌ وهو من محسّناتِ الكلام، ولعلّ الإفادة بهذا هنا لأنّ استقلال كلّ إلهٍ بما خلقَ من أبرزِما يقدحُ فيه أن يجهل كلُّ إلهٍ ما خفيَ من خصائص غيرِه لئلاَّ يُنازعه فيها؛ فحين أثبت علمه المطلق أثبتَ بأنّه واحدٌ لم يُنازعه ملكه أحدٌ ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقدّس الله عن كلِّ ما نُسب إليه من الشّريك والولد؛ فمقامُه أرفعُ من أن يُعدَّ بأنّهُ مشارَكٌ في أوصافِه العظيمة.

١٣. الإشفاقُ من نهايةِ الظّالمين الوخيمة وتقريرُ منهجِ الدّعوةِ الأقوم

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾.

ولَمّا ظهر للرّسُول ﷺ جليًّا عناد قومه كان يخشى أن يحلّ العذابُ بهم شأنَ الأمم التي يحكي الله عنها ولكن الرسول ﷺ لا يعلمُ كيف ذلك؛ فعالج الله بواعث الخشيةِ فيهِ بتلقينِه هذا الدّعاء ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ قل أيّها الرّسُول ﷺ متوسّلاً بالله: يا ربّي إن كنت قضيتَ لي و أنا حيٌّ بأن تُريني عذابَ القومِ الكافرينَ الذي تعدُهم بهِ في الدّنيا، و"إمّا" أصلُها "إن" الشّرطيّة و"ما" التي يؤتى بها صلةً للتّأكيد، وفي هذا التّلقين إيماءٌ بأنّ الله منجّيه؛ وهو ما أفادهُ الدّعاء باسمِ الرّبّ الذي من شأنه أن يلطف بمربوبه ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يا ربِّ فلا تجمعني مع الذين ظلموا أنفسهم فاستحقُّوا العذاب فأهلك معهم واجعلني مع عبادك الصّالحين، وجدّدَ في دعائه "ربّ" تعظيمًا لشأنه الجالبِ لفضله، ونعتهم بالظّلمِ ذمًّا لهم وليُبيّن لنا سبب وقوعِ العذاب عليهم لنحذرهُ، واستعمل "في" للدّلالة على الظّرفيّةِ أي لا تجعلني حيث يُقيمون لئلاَّ أهلك معهم؛ وذلك استئناسًا بأحوالِ الرّسلِ قبله كلوطٍ عليه السلام لكنَّ الله لم يجعل هلاك قريشٍ بعذابٍ سماويٍّ ولكنه أراهُ مصارع أسيادِها يوم بدرٍ ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ و إنّنا نستطيعُ أن نجعلك ترى عذابَ قومك الكافرين، و أكّد الجملة لأنّ المقصُودين بمضمونها شاكّون فيها، والمراد: لا نُريه لك عاجلاً لكن نؤخّرُه لحكمةٍ؛ أو تأكيدُ الآية مجرّدُ حملٍ للرّسُول ﷺ بألّا يغفل عن ترقّبه فيكثر التّضرّع بالحفظِ، وفي إرشادِ الرّسُولِ إلى هذا الدّعاء مع أنّه مبشّر معصومٌ تربيةٌ لنا على التّواضع والخضوع لله؛ فإنّ مقامه ﷺ على رفعته لم يرفع عنه واجب الدّعاءِ بالحفظ.

وحين بيّن الله للرّسُول ﷺ بأنّ إهلاك قومه بسببِ تكذيبِهم و إيذائهم للدّعوةِ ما هو إلاّ مسألة وقتٍ أوصاهُ بأن يلتزم الحلم والحكمة معهم ولا ينجرّ إلى أهوائهم ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ رُدَّ عن

نفسكَ وعن دعوتِك أذى من يُؤذيك بالطّريقةِ التي تراها أفضل نتيجةً، والمشهور في تفسيرِ "أحسن" بأنّه ردُّ عموم القبيح بما يكونُ أكمل في الحسن، غير أنّ استنطاق باقي النّصوص وإسقاط الآية على أرض الو اقع يجعلُنا نقدّرُ الدّفع الأحسن بالتّوقّعِ الحكيم للنّتيجةِ؛ يقُول القُطب في الآية: "... ككلمةِ الشّهادةِ والوعظِ والسّلام والإحسان إلى المسيء ونحو ذلك؛ إذا كان لا يُفضي إلى إهانةِ الدّينِ والمرُوءة"،[8] على أنّه إن لزم استعمالُ الجميلِ فالآية تحتملُ معنى: رُدَّ بأشدّ في الحُسْن من السّيئةِ في القُبح، وإن اعتُبر "أحسن" مسلوب المفاضلةِ فالآيةُ توصي بالإحسان عامّة إلى من شأنُه الإساءة وإلى غيرِه من باب أولى ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ نحنُ عالمون بما يتّهمُك بهِ قومُك من السّحرِ والكذبِ وغيرِ ذلك، والتّنبيه إلى علمِه بفعالِهم إيذانٌ بمجازاته لهم و إيماءٌ إليه ﷺ أن يفوّض أمره إلى الله على كُلِّ حالٍ ولا يغتمَّ.

وحين كان لعالم الشّياطين الغيبيّ تأثيرٌ مباشرٌ في زرعِ فتيلِ العداواتِ أوصاهُ الله تعالى بأن يتّقيَ شرّه ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ واستعن بالله طالبًا حمايتهُ: يا ربّي أعتصمُ بك من نزغات الشّياطين، والمتبادرُ الظّاهر أنّه أريد بهم هنا شياطينُ الجنِّ بالخصوص، و"همزات" جمعُ همزةٍ مصدرُها الهمز كالأَزّ والهزّ؛ وهي الضّغطُ باليدِ أو الإصبع على شيءٍ؛ واستُعمل مجازًا في وساوسهم التي يدفعُون بها نحو الشّرّ؛ وفي ذكرِها بالجمعِ إشارةٌ إلى تنوّعها واختلافِ أحوالِها مع كثرةِ الشّياطين ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ وأستجيرُ بك يا ربّي لئلاَّ يقدُموا إليَّ بالوساوس في العبادةِ خاصّةً وفي عامّةِ الأحوال، ولعلّ أمرهُ ﷺ بالاستعاذةِ محمولٌ على طلبِ البقاءِ على السّلامة منهم فحضورُهم إليه ضعيفٌ لقوّةِ حصانته، وكرّر الاستعاذة تعليمًا لنا بأن نجتهدَ فيها ولا نعتقدَ أنّنا بعيدُون عن كيدِهم.

ثمّ يعودُ بالكلامِ إلى المعرضين وما كان من شأنِهم عند الموتِ، أو الكلام عن عالم الضّالين والمضلّلين من الشّياطين ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وهم على تلك الحالِ إلى أن تجيء أحدهم ساعةُ رحيله عن الدّنيا، فيقُول في نقطةِ تحوّلٍ رهيبةٍ من نهايةِ الامتحانِ إلى رُؤيةِ الخسارةِ الفظيعةِ الدّائمة: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ يا ربِّ ردّني إلى الحياةِ، واستعمل ضمير الجمعِ "ارجعون" ولم يقل: ربِّ ارجعني تعظيمًا لمقامِ الله، وقيل: الضّميرُ عائدٌ للملائكةِ التي تأتيه ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ عسى

---

[8] محمد بن يوسف أطفيش: **تيسير التّفسير**، ج١٠، ص٥٢.

أكسبُ عملاً صالحًا فيما تركت؛ وعلى معنى التّركِ المجازيّ أي ما ضيّعتُ من الأعمالِ لم أعمله، أو بمعناهُ الحقيقيّ أي فيما خلّفتُ من عالم الدّنيا، وفي هذا وعدٌ بالامتثالِ مع اعترافٍ بالتّقصيرِ نُظم في أقصرِ لفظ شاهدًا على بلاغةِ القرآنِ في حكايةِ موقفِ الموتِ الذي تشحُّ فيه الكلمات ﴿كَلَّا﴾ لا رجوع إلى الدّنيا لمن حلّت ساعةُ رحيله، و"كلاّ" حرفُ إبطالٍ لما أفادهُ الكلام قبلاً تضمّن ردعًا وزجرًا، ثمّ يقُول الله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أجل هو قائلٌ ذلك طلبًا للرّجوع ولكنّ طلبه ذهب أدراج الرّياح ولن يحظى بقبولٍ؛ كما أنّ وعدهُ هراءٌ ليس وراءهُ أساسٌ من الحقيقةِ فلو رُدَّ لم يعمل صالحًا، وأطلق الكلمة على جملةِ دعائه مجازًا من بابِ إطلاقِ الجزء وإرادةِ الكلّ، وأكّد قوله لها تلميحًا بأنّ شدّةَ الوضعِ ستُلجئه إليها لا محالةَ، وحكايةُ هذا الموقفِ عبرةٌ لنا جميعًا للاستعدادِ للموتِ كي نُرحم في ساعته ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وبعدَ موتِهم حياةٌ انتقاليّةٌ لابُدّ منها تستمرُّ إلى يومِ بعثِ كلّ البشر، والوراء مستعملٌ هنا في معنى حتميّة حصول الأمرِ؛ لأنّ من لازمِ السّائرِ إلى شيءٍ ثابتٍ أن يقع فيه؛ واختار كلمة"وراء" مع أنّ المتوقّع يكون من الأمام لأنّ شأنَ الأمرِ غير المرغوبِ فيه أن يُفرّ منه فصار وكأنّه لاحقٌ لا آتٍ، وأصلُ البرزخِ الحاجزُ يوضعُ بين شيئين؛ وهو مرادٌ به حياتُهم في القُبور؛ ويُحتملُ أراد ما بين موتِهم والبعثِ من فناء العالم وأهوال السّاعة، وجعلُ غايةِ البرزخِ إلى يومِ البعثِ لإقناطِهم من الرّجوعِ.

١٤. بيانُ فلاح فريقِ الإيمان والنّكالُ بالأشقياء وتقريعُهم

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

ثمّ يُفصّلُ شيئًا في مو اقفِ البعثِ الذي انتهى إليه الكلام ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ فإذا نفختِ الملائكةُ في الصّور النّفخة الثّانية للبعثِ بعد النّفخةِ الأولى لصعقِ الخلائق، ونفخ الملائكةِ في الصور لا يعلمُ حقيقته إلا الله؛ وقيل: النّفخُ يكونُ بأمرٍ تكوينيٍّ من الله، وقد بنى الفعل للنّائبِ لأنّ المقام جاء ليهتمّ بحادث النّفخِ لا بالنّافخ، والصّور لُغةً آلةُ النّفخِ؛ وقيل جمعُ صُورةٍ فهو نفخ الروح في الأجساد، وعدل عن إعادةِ لفظِ البعثِ ليهتمَّ بذكرِ أمارته التي قدّرها الله لتكون بمنزلةِ الإشارةِ الرّسميّة لانطلاقِه ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ فلا اعتبار للعلاقاتِ النّسبيّة التي كانت بينهم سببًا للنُّصرة والشّفاعة؛ وذلك من شدّةِ الهولِ في الموقفِ الذي أطفأ دواعي التّعاطفِ بينهم حتّى صار كلٌّ مشتغلاً بنفسه، ولعلّ النّسب يبقى معلومًا–وإن لم ينفع - فلا يُحَوَّلُ حالُهم إلى حالِ الأجنبيّ، لأن الله ذكر فرار المرء من أخيهِ وأمّه...؛ فالتّقدير: فلا أنسابَ تنفعُهم ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولا يسألُ بعضُهم بعضًا يوم القيامةِ عن الأنساب؛ أي لا يشتغلُون بالتّواصلِ الذي هو سببُ الانتفاع وقضاء المصالِح لإدراكهم أنّه لا أحد ينفعُهم، وأمّا قولُه: ﴿وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصّافات: ٢٧] فهو سؤالُ مخاصمةٍ وقيل: يقعُ في النّارِ، وهذه الأحكام تعمُّ كلّ شقيٍّ مشركًا كان أو موحّدًا ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمن كان عظيم القدرِ بأعمالِه الصّالحة وتوبته من جميع الذّنوبِ فأولئك من أهل الفلاحِ الحقيقيّين، والآية أفادت قصر الفوزِ على هذا الصّنف، وثقلُ الميزانِ وخفّتُه كنايةٌ عن الشّأنِ؛ أي فمن ثقل شأنه...، ولا شأن في ذلك اليومِ إلاّ بالتّوبةِ والصّلاح مصداقًا لما نادت به كلُّ الآيات التي تحدثت عن الموضوع، ومقابلةً لهذا الفريق يذكر الخاسرين ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ومن حبطت أعمالُه الصّالحة وذهبت هباءً منثورًا فانحطّت درجتُه عند الله بسببِ انتقالِه إليه محمّلاً بالآثامِ غير تائبٍ منها ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ فأولئك هم الذين فوّتُوا الفلاح العظيم عن أنفسهم ومصيرُهم عذابُ النّارِ الدّائم، واستعمل اسم الإشارةِ في الموضعينِ"أولئك" تمييزًا للفريقين ليظهر كُلّا بما يجدُه؛ ولعلّ اختيارهُ للبعيدِ تحقيقٌ لبيانِ ارتقاءِ السّعيدِ في الدّرجات مقابل سفالة الشّقيّ في الدّركات، ومثّل لخسارتهم بحالِ الذي أنفق أوقاتًا وجهودًا وأموالاً لأجلِ أن يستثمرَ فيما يظنُّ أنّه يُفيدُه فخرج بعد حينٍ خاسرًا كلَّ شيءٍ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ تنقضُّ ألسنةُ النّارِ عليهم وتفتكُ بأجسامهم، وذكر الوجه بالخصوص لأنّه

أشرفُ الأعضاء، واللّفحُ الحرقُ بشدّةٍ، والكلُوح انفتاح الشّفتينِ حتّى تنكشف الأسنان كحالِ رأس الغنم المشويّةِ بعد الذّبح؛ وهي حالةٌ فظيعةٌ من القبحِ لأنّها في الوجه.

ويُتمُّ الحديث في أحوالِ الأشقياء وسط النّار مذكّرًا بقيمةِ الهديِ الإلهيّ الذي جعله الله مفتاح السّعادةِ في الدّارين ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ألم تكن الرّسل والدّعاة إلى الله يقرؤون عليكم آياتِ الوحيِ يدعونكم إلى ما تضمّنته من الهدايةِ والنّورِ؛ لكنّكم قابلتُموهم بالإعراض والتّكذيبِ؟ والجملةُ مقولُ فعلٍ محذوفٍ أي: يقال لهم، والاستفهامُ جاء لمعنى التّقرير المتضمن معنى التّوبيخ. يُجيبُ الأشقياء جوابًا انصرف عن فحوى السّؤالِ لأنّ جوابه معلُومٌ لا يسعُ إنكاره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ يا ربّنا غلبت شقاوتُنا سعادتنا فخسرنا، والشِّقوةُ زنةُ فِعلةٍ التي تكونُ للهيئةِ؛ وهي من الشّقاء أي التّعب والعذاب وتُقابلُها السّعادة؛ وذلك الغلبُ بسبب ما صدر منهم من الشّركِ والمعاصي باختيارِهم، فصوّروا حالهم كحالِ لونٍ غلبَ عليه لونٌ بشدّته فلم يظهر، واختارُوا النّداء بلفظِ الرّبوبيّةِ استعطافًا لكن أنّى ينفعُ! وأضاف الشّقوة لهم لإفادةِ اختصاصها بهم ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ وكنّا أهل ضلالٍ بسببِ ذلك، وإمعانًا في الاعترافِ لم يكتفُوا بقولهم: فضللنا لحكايةِ الضّلالِ؛ بل أشارُوا إلى زمانِه وهو الدّنيا بفعلِ الكونِ الماضي"كنا"، وعبّرُوا بالقوميّةِ إشارةً إلى أنّه كان ضلالاً متجذّرًا فيهم حتّى صار من خصائص قوميّتهم. وبعد التّمجيد والاعتراف رفعُوا الدّعاء: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ ربّنا نسألُك بإخلاصٍ أن تخرجنا من هذا العذابِ لنعمل صالحًا، والآيةُ هنا لم تذكر الإخراج إلى الدّنيا ولعلّهم طلبُوا مطلق ما يُحقّق لهم النّجاة، وحين أبطلت طمع خرُوج الأشقياء من النّارِ للعمل فهمنا بالأحرى أنّ الخروج منها إلى الجنّةِ باطلٌ ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فإن عُدنا بعدها إلى طريقِ الإعراض فإنّا ظالمون حقًّا نستحقُّ العذاب، ولا يخفى على البصيرِ أنّ حديث أهلِ النّارِ ليس كلامًا عاديًّا بل هو جؤارٌ وصراخٌ يسمعُه الله ويفهمه، وحين كان طلبُهم هذا قادحًا في عدالةِ الله في إعطاءِ الفرصِ جاء الرّدُّ عليهم بالنّكيرِ والتّأييس الشّديد: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ اخلدُوا في النّارِ خاسئين، ولا تدعُوني فلا استجابةَ لدُعائكم، والأمرُ بالخسوء زجرٌ واحتقارٌ، والنّهيُ عن التّكليمِ مستعملٌ في اعتزالِ النّقاش في الأمرِ المفصولِ فيه، وهو إشارةٌ إلى آخرِ عهدِهم بجوابٍ يجدُونه منه

تعالى ليُطبق عليهم في النّارِ ولا سامعَ لهم -فاللّهمّ سلّمنا بلُطفك- وقيل: النّهيُ هنا عن الكلامِ في شأنِ الإخراج، والحاصلُ واحدٌ لأنّه لا شيء يرجونه إلاّ الإخراج سواء كلّيًّا أو جزئيًّا.

ثمّ يذكّرُهم ببعضِ قبائحهم الدّنيويّة التي استحقُّوا بها العذاب ذاكرًا لهم مقام السّعداء ليزيدَ أسفُهم ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ قد كانت جماعةٌ من عبادي المؤمنين حولكم في الدّنيا يتضرّعُون لله بأن يغفرَ ذُنوبهم ويرحمهم بفضله الواسع مُثنين عليه، وفي ذكرِ هذا الفريق إغراءٌ لنا بأن نكون منهم بالاقتداء بهم، وتنكيرُ "فريق" مؤذنٌ بغرابته التي هي وجهٌ لنفاسته، واختيارُ تسميةِ "العباد" لهم مع نسبتهم إلى ضميرِ الجلالة تشريفٌ لهم وتعريضٌ بإقصاءِ الأشقياء حيثُ لم يحقّقُوا أسس تلك العبوديّةِ؛ والتي من مظاهِرها حسنُ التّبتّلِ لله، و إيراد هذا الدّعاء إشارةٌ للأشقياء بأنّه فاتكم زمنُ نفع التّضرّعِ وطلبِ الرّحمةِ؛ بل وكنتُم فيه تسخرُون من المتضرّعين ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ فشرعتُم تستهزئون بهم تكبُّرًا حتّى كان ذلك سببًا في نسيانِكم ذكر الله والإنابة إليه، ونسبَ التّنسية إلى فريقِ المؤمنين "أنسوكم" على سبيلِ المجازِ لتعلّقِها بهم، والسِّخريّ بكسرِ السّينِ أو بضمّها -كما قرأَ نافعٌ- من سخر بمعنى هزأَ ومؤنّثُه سخريّةٌ؛ ومصدرُهُ السَّخَروألحقت به ياء النّسب لنكتةِ المبالغةِ؛ كقولنا شيءٌ أساس وأساسيّ، والأصلُ سخرتُم منهم وسلّط الاتّخاذ على المصدر مبالغةً ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وكنتم تضحكون من عبادتِهم وأعمالِهم وصفاتِهم، وجمع بينَ تذكيرِهم بسُخريّتِهم وضحكهم ليبيّنَ غايةَ استهزائهم الذي استحقُّوا بهِ أن يهانُوا بهِ في النّارِ خاسئين ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ إنّي أكرمتُهم اليوم جزاءً لصبرِهم بدارِ الفوزِ الأبديّةِ، والصّيغةُ من قصرِ الموصوفين على الصّفة أي هم الفائزون لا غيرُهم، وأكّد جزاءهم تحقيقًا لحصوله لأنّ أهل النّارِ بعيدُون عن تصوّرِه، وذكر صبرهُم هنا تنويها بقيمته؛ وتعريضًا بأنّكم أنتُم من صنعتُم لمن كُنتُم تعادُونهم مقامَ الفوزِ بإيذائهم حتّى صبروا وفازوا.

١٥. الاعتبارُ بمصيرِ الأشقياء للدّعوةِ إلى العملِ وتنزيهُ الله والثّناءُ عليه

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾.

ثمّ يختمُ السّورةَ بتقريرِ الهدفِ من الخلقِ والإيجاد من خلالِ مخاطبةِ الأشقياء منزّهًا مقامه من العبث حين أوجدهم؛ ومثنيًا على نفسه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ كم عمّرتُم في الأرضِ من السّنوات؟ والمراد بهذا السّؤال التّذكير بنعمةِ العمرِ الطّويل التي قُضِّيَت في عصيانِ الله بدل تفريغها لطاعتِه ردًّا على من طلب العودة ومزيدًا من الفرص، والاستفهامُ توبيخيٌّ، والأظهرُ أنّه ليس بعد دُخولِ النّاربل كان في موقفٍ من مو اقِف الحساب، ولم يُرد بالأرض مدّة القبرِ-كما ذهبَ بعضٌ- بدليلِ أنّه سيقُول: "إن لبثتُم .." اعتبارًا بقصرِ مدّةِ الدّنيا وتضييعها ويفوتُ هذا الاعتبار مع تأويل القبر. أجاب الأشقياء: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ مكثنا في الدّنيا يومًا واحدًا أو جزءًا من اليومِ، سألَهم بأن يكون حسابُهم للعُمر بالسّنواتِ فأجابُوا بحسابِ الأيّامِ مبالغةً في أنّ ما عُمّرُوه لم يُعادل ما يصلُح به الحسابُ بالسّنين ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ فتثّبت من صحّةِ جوابنا؛ وهذا بمعنى: هذا ما ظهرَ لنا فزد تثبّتًا بسؤالِ غيرِنا ممّن يُظنُّ أنّهُ أهلٌ لضبطِ الحسابِ؛ ونكتتُه تنزيهُ كلامهم من المطاولةِ والادّعاء استجلابًا للمتكلّم معه، وهذهِ الحال تعكسُ شدّةَ العذاب الذي هم فيه حتّى عادُوا يرون سني الدّنيا الطّويلة يومًا مقارنةً بالعذابِ الأبديّ. ثمّ يدلُّهم الله على الجواب الأمثل كأنّه يُعدّلُ صيغة جوابِهم إلى أسلوبٍ تحصُل منهُ عبرةٌ تُستفادُ منها النّظرة الصّحيحة تجاه الدّنيا ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لم تبقوا في الدّنيا إلاّ فترةً قصيرةً لو أنّكم أدركتُم ذلك فيها فتستثمرُوا العمر القصيرلشراءِ الفوزِالأبديّ، وكلامُ الله الأخرويّ هذا لا يشبه كلام البشر، فلا ثَمّ صوت ولا نحوه من لوازم الكلام، وقد يكونُ عن طريقِ ملكٍ أو يخلُقه بقدرته كيف شاء.

ويستمرُّ الخطابُ لأهلِ الشّقاوةِ في الآخرةِ؛ ويُحتملُ أنّه توجّهَ إلى المعرضين الأحياء استخلاصًا للعبرةِ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أظننتُم حين فُتنتُم بملذّاتِ الدّنيا أنّكم خلقتُم بلا غرضٍ ولا هدفٍ تسيرُون إليهِ شأن البهائم؟ والاستفهام إنكارٌلكونِ ذلك أمرًا صحيحًا ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ وظننتُم أنّكم لا ترجعُون إلى الله ليُحاسبكم، وأكّد الكلام حكايةً لإنكارِهم الشديد للبعثِ بدليلِ المقالِ أو الحالِ. ثمّ ينزّهُ الله نفسه عن ذلك العبث تلميحًا لنا بأن ننزّهه نحنُ كذلك: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾

تقدّس الله صاحب الملك العظيم عن كلّ ما لا يليقُ به كالعبث لأنّه الإله الحقّ الذي لم يتّصف بشيءٍ باطلٍ أبدًا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ وهو الذي لا معبُود يستحقُّ العبادةَ سواهُ؛ ربُّ هذا الوجودِ النّاطقِ بكرامته تعالى ولُطفه، ونسبَ الكرم إلى عرشه كناية عن جودِه والأصلُ أنّها صفةٌ لله، وذكر الألوهيّة إبطالاً لمعبوداتهم؛ والملك ردًّا على اعتقادِ قوّتِهم وسُلطتِهم؛ ونبّه أنّه الحقّ إثباتًا لعدم عبثِه؛ ثمّ أعاد مضمون العبوديّةِ بتكريرِ جملةِ التّوحيدِ اهتمامًا بأرقى عبارات الثّناء؛ ثمّ ذكر سلطانه الأعظم بعنوانِ الكرم ليدلّ على لُطفه الذي سبق غضبه ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ومن يعبُد مع الله شريكًا غيرهُ؛ أو بمعنى: يعبُد أحدًا مع وجودِ الله، والدّعاء واردٌ بكثرةٍ لمعنى العبادةِ مجازًا؛ تعبيرًا بالجزءِ الأظهرِ منها ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ فلن تقوم له حجّةٌ عند الله على استحقاق ما اتخذه معبودا للعبادةِ؛ والجملةُ حالٌ وليست نعتًا فلا إلهَ غير الله قد تقُوم الحجّةُ على أنّه إلهٌ بحقٍّ، والتّنويه بهذا في خواتِيم السّورةِ كأنّه قال بهِ ضمنيًّا: ما فصّلنا في السّورةِ كافٍ لإبطال الحجّةِ على اتّخاذ الآلهة ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ وسيلقى جزاءهُ الأوفى عند لقاء الله؛ وفي هذا ما أفاد تهديدًا للمشركين وتسليةً له ﷺ بأنّه ليس عليهِ إلاّ البلاغ مهما رُفضت دعوتُه إلى التّوحيد ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فإنّ المصرّين على الكفرِ لا يفوزون أبدًا، ومن لطيفِ النّظمِ أن ذكر بدايةً ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ مؤكّدًا فلاح المؤمنين ثمّ أكّد عدم فلاحِ الكافرين في الخواتِيم ليزيد التّأكيدين تقويةً ببعضهما مقرّرًا البون الشّاسع بين فلاحِ هذا وخسرانِ ذاك ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ويا ربِّ اغفر ذنوب التّائبين جميعًا، وارحم عبادك المستضعفين بواسعِ رحمتكِ، فإنّك خيرُ من يرحمُ، وحذفُ متعلّق فعلِ المغفرةِ والرّحمةِ أدبٌ في تعميمِ الدُّعاء وتفويضِ الله لاجتباء الأجدرِ بهما؛ فلم يقل: اغفر وارحم المؤمنين أو التائيين أو...، وهذا الدّعاء من الأدعيةِ القرآنيّة التي يُرغّبُ في الدّعاءِ بها لما تضمّنه من جوامع الطّلب والثّناء، وختمُ السّورة بهذا تفنّنٌ في تحسينِ المنتهى.

تمَّ بحمد الله تعالى تفسير سورة المؤمنون وتليها سورة النّور.

سورة النور

سورةُ النّورِ مدنيّةٌ كلُّها،[9] عددُ آياتها أربعٌ وستّون آيةً، وحسبَ تتبّعِ أسبابِ نزولِ آياتها فإنّها نزلت منجّمةً لسنواتٍ عدّةٍ، ونزلت في عمومها بعد سورةِ النّصرِ وقبل سورةِ الحجِّ، وسُمّيت باسمِ "النّور" لما تضمّنت من حديثٍ في وصف الله بأنه نورالسماوات والأرض في قولِه: ﴿اللَّهُ نُورُالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النّور٣٥] ولِما أمدّت به تشريعاتها العديدة من نورٍ معنويٍّ يستنيرُ بهِ المسلم في حياته؛ ولم يُعهد لها اسمٌ آخر، وقد تناولت في معظمها أحكامًا تشريعيّةً اجتماعيّةً في مجال الأسرةِ والمجتمع الأكبر.

فصّلت السّورةُ ابتداءً في حدِّ الزّنى وحدِّ القذفِ وحدِّ اللّعانِ؛ وتعرّضت لقصّةِ الإفكِ وذمِّ النّفاق وأهله، وأشادت بحفظِ الأسرةِ التي تعدُّ نواة المجتمع داعيةً إلى آدابِ العفاف بين جنس الذّكورِوجنس الإناثِ عامّةً؛ كالاستئذانِ وغضِّ الأبصار وحفظِ الفروجِ والعورات، ونهت عن إشاعةِ الفواحش والبغاء، ونبّهت إلى آدابِ السّلامِ وتزويجِ الأيامى وغير ذلك، كما حذّرت من اتّباع خطوات الشّيطان، ونوّهت ببيوتِ الله وعمّارِها، وتخلّل كلّ ذلك تذكيرٌ بقدرِالله من خلال بسطِ دلائل عظمته.

١٦. التّنويهُ بشأنِ سورةِ النّوروبيانُ حدِّ الزّناة وحُكم نكاحِهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِوَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْمُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْمُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾.

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ هذه سورةٌ عظيمةُ الشّأن أردنا إنزالها إليكم و إيجاب أحكامها وآدابها عليكم، وتنكيرُ "سورةٌ" لتفخيمِ شأنها، والسّورةُ لُغةً المكانة الرّفيعةُ؛ ومنها سمّي "السّور" لارتفاعه، والمرادُ بها هنا وفي عمومِ الاصطلاحِ القرآنيّ مجموعُ آياتٍ تحتَ اسمٍ لها؛ معلُومة البدايةِ

---

[9] وفي مسند الرّبيع عن ابن عبّاسٍ حديث تتبّع القرآن المدنيّ ومنه: "... والنّور كلّها مدنيّة، والأحزاب كلّها مدنيّة، والقتال والفتح والحجرات مدنيات..." ب: في ذكر القرآن، ر: ١٧، (١٨/١).

والنّهايةِ، وأصلُ الفرضِ لُغةً قطعُ الشّيءِ الصّلب؛ فاستُعمل لدلالةِ الإلزامِ لأنّه قطعٌ لكلِّ شاغلٍ؛ والمفرُوض بعضُ ما في السّورةِ وأسندَ الفرض إليها مجازًا، كما فُسّر الفرضُ بمعنى التّعيينِ كأنّه قال: أنزلناها بآياتٍ معيّنةٍ معلومةٍ؛ وعلى هذا فالفرض و اقعٌ على جميعِ آيِ السّورةِ كالإنزالِ ﴿وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وضمّنا هذهِ السّورة آياتٍ واضحاتٍ؛ وفي هذا إبهامٌ عن ماهيةِ تلك الآياتِ؛ أهي آياتُ التّوحيدِ أو الأحكامِ أو غيرها؟ والأظهرُ أنّ كلَّ آياتِها بيّنات باعتبارٍ ما، وفيه ذكرُ الخاصِّ"آيات" بعدَ العامِّ"سورة" تنويهًا بشأنِ ذلك الخاصّ الذي أبهمَ لنهتمَّ بكلِّ السّورةِ، وجدّد ذكر الإنزالِ مع الإضافةِ إلى ضميرِ العظمة"أنزلنا" اهتمامًا بشأنِ إنزالِها الذي يُرجى منه التّفعيل والتّطبيق ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ عسى يكونُ ذلك الإنزال و اتّضاح الآياتِ حاملاً لكم على تذكّرِ الله و اتّقائه والعملِ بشرعِه.

وبعد هذهِ التّوطئةِ التّشويقيّةِ يشرعُ في آياتِ الأحكامِ بدايةً من حدِّ الزّاني وأحكامه ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ التّعريفُ في اسمي الفاعل للاستغراقِ بمعنى: كُلُّ امرأةٍ اتّصفت بالزّنى وكلُّ رجلٍ اتّصفَ بالزّنى، والزّنى الجماع غير الشّرعيّ بين الرّجلِ والمرأةِ؛ إن كان بلا مقابلٍ وإن فُرض المقابل فهو بغاءٌ؛ والقرآنُ ذكر الاثنين لكنّهُ لم يفرّق في حُكمهما، بل عدّ الكل زنى، وفي الزّنى ذكر المرأةَ أوّلاً لأنّها دافعةٌ إليهِ بمفاتِنها ومطاوعتِها؛ وبدأَ في السّرقةِ بالرّجلِ ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨] لأنّه عليها أقوى وأمكن، والافتتاحُ بهذا نوعٌ من عرضِ عنوانِ الموضوعِ قبل تفصيله لتتفرّغَ الأذهانُ له ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ يستحقُّون على جريمتِهم تلك مئة جلدةٍ، وبدأَ بذكرِ العقُوبةِ مبالغةً في تشنيعِ الفعلِ وأصحابِه، والأمرُ متوجّهٌ إلى المسلمينَ ويقوم به أولياءُ أمورِهم لأنّ زمام التّنفيذِ المنضبطِ بأيديهم، والجَلدُ ضربُ الجِلدِ وهو من الأفعالِ المأخوذةِ من اسمِ العينِ نحو رَأَسَه إذا ضرب رَأْسَه، واستُدلَّ بقوله"اجلدوا"على اعتدالِ العقوبةِ بذكرِ الجلدِ دون الضّربِ أي ضربًا لا يتعدّى صفحةَ الجلدِ فيكشف اللّحم؛ وعُلم من هذا بالأحرى أنّها ليست عقُوبة قتلٍ بل هي مجرّدُ تأديب، وفي "كلّ واحدٍ منهما" معنى: ليس أحدُهما في العقُوبةِ أولى من غيرِه ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ولا تحملكم الشّفقةُ الشّديدةُ بحالِهما لتر أفُوا بهما ما دُمتُم تتعاملُون معهما بشريعةِ الله؛ وعبّر بالأخذِ وكأنّهُ شيءٌ بقوّته يستولي عليهم، والرّ أفةُ أمرٌقلبيٌّ لا ينضبطُ دفعُه والمراد أثرُذلك أي فأوفُوا الجلداتِ حقّها وعددَها ولا تُفرّقُوا في ذلك بين زانٍ وغيرِه، ولا شكَّ أنّ هذا متعلّقٌ بوقت تنفيذ الحدِّ ويُرأفُ على

حالِهما بعدها لعلّهُ تحسُن توبتُهما، وعلّقَ الرّأفة بدينِ الله تنويهًا بأنّها رأفةٌ مذمومةٌ لتعطيلِها للأحكامِ وإن بدت لكم بأنّها خلقٌ إنسانيٌّ، والإشارةُ إلى اليوم الآخرِ بعدها إرشادٌ إلى تهذيبِها لتكون رأفةً من سوءِ العاقبةِ قبل كلِّ شيءٍ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذا شرطٌ حذف جوابه لدلالته من المقام وتقديرُه: فلا تأخذكما بهما رأفةٌ، فعليكم بإقامة الحدّ على وجهه الشّرعيّ إن كُنتم حقًّا أهل إيمانٍ بالله وأنّه سيجمعُكم بعد الموتِ لحسابِكم على ما فرض عليكم من الأحكام، وفي هذا ما تضمّن تهييجًا للأفئدةِ وإثارة للضّمائر كي تنهضَ بموجباتِ حفظِ إيمانِها فلا تُعطّل حُدود الله[10] ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليكن حاضرًا عند جلدِ الزّاني ومزنيّته مجموعةٌ من أهلِ الإيمان، هذا لأنّ في شُهودِه خزيًا لهما بالفضيحةِ فإنّها قد تُفيد أكثر من السّوطِ؛ وتعاونٌ على تنفيذِ واجبِ الحدِّ وإتمامه والاحترازِ من مجاوزته؛ واعتبارٌ بحالِهما بأنّه من استترَ للذّةِ الشّهوةِ العابرةِ مآلُه كشفُ أمرِه تحتِ الآلامِ الموجعةِ، وفي تسميّتِه بالعذابِ ما يُؤذنُ بوجوبِ بلوغِه حدّ الإيلامِ، وقد نبّهتِ السّنّةُ إلى أنّ الآيةَ في غيرِ المحصنِ أمّا المحصن فحدُّهُ الرّجم إلى الموتِ، كما فصّل العُلماء في كيفيّةِ الجلدِ المشروعة فليُراجع ذلك في مظانّه.

و إقامة حد الزنى سواء كان بالجلد أو بالرجم لا يكون إلا بعد قيام حجة شرعية بإقرار الزاني أو شهادة أربعة شهود على رؤيتهم له يفعل الفاحشة، على أن من وقع في الزنا يؤمر بالستر على نفسه وبالتوبة بينه وبين ربه، ولا تتوقف توبته على إقامة الحد، و إنما يقام الحد إذا بلغ الأمر إلى الحاكم وقامت الحجة الشرعية به.

فقد رُوي أنَّ مَرْثَدَ بن أبي مَرْثَدٍ الغَنَوِيَّ كان يحمِلُ الأسارى بمكة، وكان بمكة بغيٌّ يقالُ لها عَنَاقُ، وكانت صديقَته، قال: جئتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله أنْكِحُ عَنَاقَ؟ قال: فسكتَ عني، فَنزلَتْ ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فدعاني فقرأها عليَّ وقال: (لا تنكحها)،[11] وهكذا يأتي إلى بيانِ حُكم تزوّجِ الزّاني بعدَ أن دنّس عرضهُ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآيةُ لها علاقةٌ وطيدةٌ

---

[10] وفي تعطّل هذه الأحكام في فترات الإسلام المتأخّرة قراءاتٌ كثيرةٌ يطولُ الحديثُ عنها، ولعلَّ أضعف الإيمان أن يمتلئ قلب المؤمن يقينًا بأنَّ الحكمة كلّها فيما شرّع الله له؛ وأنّ تبدّل الأزمان والأحوال والأمكنة لا يُبطل جدوى هذه الأحكام التي تضمّنها الدّستور المخلّد الذي لم ينزله إلاّ خبير بأحوال عباده.

[11] ، ر: ٢٠٥١، (٣/٣٩٦).﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً..﴾ رواه أبو داود، ك: النّكاح، ب: في قولَه تعالَى:

بسببِ النّزولِ فلذلك بدأَ هنا بالزّاني بخلافِ ما سبقَ حيثُ هي جوابٌ لمرشد؛ وقد نزلت تصحّحُ ما استقرَّعليه المجتمع الجاهليّ ممهّدةً لقولِه: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومقصد إنزالِها العامّ تحصينُ ذوي العفّةِ من الرّجالِ من الخسائس،[12] وتحصينُ العفيفاتِ من النّساء من الأخسّة، وحاصلُ معناها: الذي كان الزّنى دأبه لا يليقُ بهِ زواج العفيفةِ المسلمة بل يتزوّجُ من كانت زانيةً مثله أو مشركة؛ وهذا التّقسيم عائدٌ إلى طبيعةِ المتزوّج؛ فإن كان مشركا فيكتفي بالمشركةِ عُمومًا ما لم يُسلم؛ ويقتصرُ إن أسلم على مسلمةٍ عُرفت بالزّنى مثله حفاظًا على سلامةِ العفيفاتِ البواقي؛ وهذا التّضييقُ أنسبُ بالسّياقِ الذي جاءَ معاقبًا للزّاني ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ والتي كان الزّنى دأبها فلا تتزوّجُ إلاَّ من كان زانيًا مثلَها أو مشركًا حسبَ إسلامِها أو عدمه عندَ التّزوّج، ولعلّ من أبرزِ حِكمِ هذا في الجنسينِ أنّ المدنّسين أنفُسهم بالزّنى لا يُقبِلُون على أهلِ العفافِ إلاَّ بنيّةِ إلحاقِهم بدنسِهم؛ وإن صلُحت نيّتُهم ظاهرًا ستبقى أعناقُهم شامخةً عليهم بأنّهم حُظُوا بشهادة العفافِ مع كلّ ما اقترفُوهُ؛ فلربّما فكّرُوا في الفاحشةِ ثانيةً لأنّهم لم يُردعُوا؛ هذا من الجانبِ الأخلاقيّ، ثمَّ إنَّ القراءات الطّبيّة اليوم تُؤكّدُ وجوب هذهِ الحصانةِ احترازًا من انتقالِ عدوى الإيدز الذي من أهمّ أسبابِه العلاقات الجنسيّة غير الشّرعيّة ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ذلك دأبُ المشركين؛ أما وقد أكرمتُم بالإسلامِ فقد منعتُم منه، والإشارةُ "ذلك" راجع إلى نكاحِ أهل العفافِ بغيرِهم، ورد بعضُهم الإشارة إلى الزّنى عامّةً بأنّه محرّمٌ.

١٧. حُكم قذفِ المحصناتِ وحُكم قذفِ الأزواج "الملاعنة"

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌرَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ

[12] الخسائس جمع خسيسة من النساء، والأخسة جمع خسيس من الرجال.

شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾.

ولَمّا كان الزّنى لا يثبُت إلاّ بشهادةٍ صحيحةٍ حذّر من الاتّهاماتِ الباطلةِ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ والذين يرمون ذوات العفة عن الزنى مع البلوغ والحرية؛ وحذف ما وقع به الرّمي لدلالةِ السّياقِ عليهِ؛ أي: بالزّنى، والمراد نساء غير نسائهم لأنّه سيأتي حُكم من يرمون أزواجهم، والتّعبيرُ بالرّميِ مجازٌ عن الشّتمِ وردَ على طريقِ الاستعارةِ لرميِ شيءٍ حسّيٍّ انتقامًا من المرميِ لهُ، والمحصنات الحرائر العفيفات ويُقابلُها الرّجل المحصنُ أي العفيف؛ لفظٌ مأخوذٌ من الحصانةِ أي المناعةِ فهنّ ممنوعاتٌ بعفتهن عن دنس الرّذيلةِ ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ دون أن يكون لديهم ثلاثة شهودٍ عدولٍ إضافةً إلى الشّخص القاذف؛ ولم يذكر متعلّق الشّهادة لظهورِ مدلوله؛ أي: على إثباتِ الفاحشةِ، والآيةُ وإن وردت في المحصناتِ فتشملُ بالقياس سائر أهل العفّةِ من الجنسينِ سواءً كان القاذف رجلاً أو امرأةً ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ فعاقبُوا كلّ واحدٍ منهم ثمانين جلدةً، فيجلد القاذف والشهود -إن وجدوا- وكانوا دون الأربعة بغضّ النّظرِ عن اشتهارِهم بالصّدقِ، وإن كانُوا أربعةً عُدولاً سلموا من الجلد و أقيم الحُدَّ على المتّهمةُ التي ثبت زناها، واشتراطُ الشّهودِ بهذا العددِ دلّ على وجوبِ صيانةِ الأعراض؛ وقد ناسبته هذهِ العقوبة التي تسدُّ ذريعةَ الفساد، وظاهرُ الآيةِ أنّ الحدَّ حقٌّ لله فلا يُسقطُه عفوُ المقذُوف إن وصل الأمر إلى الحاكم ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ ولا تقبلُوا لهم بعد ذلك أيّ شهادةٍ يُدلُون بها لجرأتِهم على أعراضِ النّاس، والأبد كلُّ الزّمان المستقبل، وفي هذا إبطالٌ لأهليّتِهم للشّهادةِ بطريقِ الفضح العامّ عقُوبةً معنويّةً بعد عقوبةِ الجلدِ الحسّيّةِ، ولعلَّ حكمة ذلك أنّ المتجرّئ ستحملُه عواطفُ الغيرةِ بقوّةٍ إلى القذفِ؛ فإذا علم أنّه لا مطمع له أبدًا من حفظِ ظهرِه وعِرضه من الجلدِ و إبطالِ شهادتِه انحبست قوى اندفاعه أمام سدّ الحُكمِ الرّبّانيّ القاطع ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وأولئك هم أهل الفسق الحقيقيون، والصّيغةُ للقصرِ وكأنّه قال: لا فاسق سواهم، وذَكرهُم باسمِ الإشارةِ تمييزًا لهم بفضيحتِهم الثّقيلة التي تمثّلت في الجلدِ و إبطالِ حقّ الشّهادةِ والحكم بالفسقِ، ونبّه صاحبُ صفوةِ التّفاسيرِ إلى أنّ قيد الإحصانِ في الآيةِ يخرجُ من عُرف بالفسقِ

والمجون فلا حدَّ على قاذِفه لأنّه باع كرامته بنفسِه،[13].لوجود الشبهة، وإن كان لا يحل قذف أحد بالزنى مطلقا ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ إلاّ من تاب بعد القذفِ ورجع عن اتّهامه وأصلح حاله وما أفسدهُ قذفُه بجبرِ القلوبِ والمحاللةِ، وذكرُ التّوبةِ وتوابعها بعد التّهويل العظيم للمعصيةِ منهجٌ قرآنيٌّ بديعٌ هدفهُ غرسُ عقيدةِ الرّجاءِ في رحمةِ الله وعدمِ القنوطِ ما دامت في أنفاسِ الآثم بقيّةٌ، وقد أكّد ذلك بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإنّ الله يغفرُ ذنوبه ويرحمُه بواسعِ رحمته، وفعولٌ وفعيلٌ من صيغ المبالغة، وبهذه التّوبةِ زال عن القاذفِ لقب الفسقِ وحدُّه باقٍ على كُلِّ حالٍ؛ أمّا في قبولِ شهادته فقولانِ، وهذه أحكامُ الآيةِ الظّاهرةُ وقد فرّعتِ السّنّةُ عليها أحكامًا أُخرى كما فصّل المجتهدُون في جزئيّاتها.

وبعد بيانِ حُكم القذفِ يأتي إلى أحكامِ اللّعان؛ فعن ابن عباس أنّ هِلال بن أميّة قذف امرأتَه عند النّبي ﷺ بشريك ابن سَحمَاء، فقال النّبي ﷺ: (البيّنَةُ أو حَدٌّ في ظهرِك)، فقال: «يا رسول الله: إذا رَأى أحدُنا على امرأته رجُلا ينطلق يلتمس البيّنة»، فجعل النّبي ﷺ يقول: (البيّنة وإلا حَدٌّ في ظهرك)، فقال هلال: «والذي بَعَثك بالحقّ إنّي لَصَادق، فليُنزِلَنَّ الله ما يُبرّئ ظهرِي مِن الحَدِّ»، فنزل جبريل وأنزل عليه[14]: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ والذين يتّهمون زوجاتِهم بالزّنى مباشرةً أو عن طريقٍ غيرِ مباشرٍ كالبراءةِ من الولدِ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ دون أن يكون معهم شاهدٌ غيرُهم؛ ومتعلّقُ الشّهادة محذوفٌ أي: على الفاحشة، وهذا الحُكم نوعٌ من تخصيصِ حُكم القذفِ راعتهُ الشّريعةُ لتُلائم طبيعة الغيرةِ الحادّةِ التي تكونُ من الزّوجِ إذا رأى زوجته على الفاحشةِ ولم يقوَ على كتم أمرِها فعذرتهُ عن التماس الشّهودِ الأربعةِ ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فعلى من ادّعى زِنى زوجته أن يعترفَ أمام القاضي كي يرفع حدَّ القذفِ عن نفسه؛ مشهدًا الله أربع شهاداتٍ تقُوم مقام الشّهودِ الأربعةِ بأنّه صادقٌ فيما يدّعيه؛ وذلك كأن يقُول: أُشهدُ الله وأنا صادقٌ في أنّي رأيتُ فلانة تزني؛ يكرّرُ ذلك أربعَ مرّاتٍ، وكأنّه بتكلّفه في حملِ نفسه على الشّهادةِ قد أخرجَ من نفسِه أربعةَ شهودٍ، وسمّاه شاهدًا مع أنّه مدّعٍ إيذانًا بأنّ له حظًّا من قبول دعواهُ

---

13. محمد علي الصابوني: **صفوةُ التّفاسير**، ج: ٢، ص: ٣٠٢.

14. ، ر: ٤٧٤٧، (٦/١٠٠).﴿ويدرأُ عنها الْعذَاب ...﴾ رواه البخاري، ك: تفسير القرآن، ب:

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ثمّ ينطقُ بشهادةٍ خامسةٍ على أنّه تلحقُه لعنةُ الله إن كذب؛ كأن يقُول: حقّت عليَّ لعنةُ الله إن كذبتُ فيما اتّهمتُها به، وهذهِ الشّهادةُ نوعٌ من التّأكيدِ للأربعِة السّابقةِ لأنَّ دلائل الألفاظِ تُستحضر بذكرِ أضدادِها فقد يتجرّأُ المتّهم على عدِّ نفسه صادقًا وإذا جاء يذكُر الكذب ظهرت لهُ حقيقةُ ما حمل عليهِ نفسهُ، وزادَ اللّعنة هنا لأنَّ الرّجل باتّهامه زوجته قد عرّضها لهجرانِ النّاسِ فناسبهُ جزاءٌ مناسبٌ، لأن اللعن هو الطرد من رحمة الله.

هذا من جهةِ الرّجل ليرفعَ عن نفسِه حدّ القذفِ، أمّا عن المرأةِ إن رأت بأنّ زوجها يتّهمها كذبًا ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فليس لها لكي تدفع حدّ الزّنى عن نفسها الذي ثبت بشهادةِ الزّوج وهو الرّجمُ إلى الموت؛ إلاّ أن تشهدَ بكذبِه كأن تقُول: أُشهدُك يا الله بأنّ فلانا اتّهمني باطلاً بالزّنى و إنّه لكاذبٌ، تكرّرُ ذلك أربعَ مرّاتٍ ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وتشهدُ شهادةً خامسةً بأنّ غضب الله و اقعٌ بها إن كان زوجُها صادقًا؛ كأن تقُول: نزل عليّ غضبُ الله إن كذّبتُه مع كونه صادقًا، هذا ما بيّنته الآيةُ وإن تمّ على هذهِ الصّورةِ فهو كافٍ لرفعِ الحدِّ عنهما على كُلِّ حالٍ، والملاحظ أنّه لم يُطلب من المرأةِ إثبات براءتها بل طُولبت بردّ شهادةِ زوجها وفي ذلكَ اعتبارٌ لحقِّها في الدّفاعِ المباشرِ عن عرضها، وبالمقابلِ حمّلها الله الاعتراف بغضبِه عليها جزاءً من جنسِ إغضابِ زوجها إن كانت حقًّا آثمةً، وبين ألفاظِ الصّدقِ والكذبِ في الآيةِ طباقٌ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ ولولا ما كتب الله لكم من لُطفه عليكم بالعمرِ والسّترِ مع العصيانِ ورحمته بنعمه الكثيرة؛ وحذف جواب "لولا" لقصدِ التّهويلِ وكأنّه ليس ثمّة من التّعبيرِ ما يفي ببيانِه؛ وتقديرُه: لكان ما لا تتخيّلُون، ورُبَّ مسكوتٍ عنه مفهوم من المقامِ أبلغُ من معبّرٍ بهِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ولولاَ توبةُ الله عليكم و أنّه صاحبُ الحكمةِ مع عبادِه لكان معكم غير ما تجدُون؛ والمراد: فاحمدُوا الله على ما شرّع لكم والتزموهُ، والصّيغتان"تواب، حكيم" للمبالغة، وفي تخصيص اسمِ الله الحكيمِ هنا تنويهٌ بحكمتِه التّشريعيّةِ العظيمةِ لهذهِ الملاعنة التي رحمت الرّجل و آنست المرأةَ بعدلٍ ولولاها لشقَّ الحال على كلٍّ منهما.

١٨. قصّةُ الإفكِ وبيانُ سبيلِ التّعامل مع الإشاعات

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)﴾.

ومناسبةً لذكرِ حُكم قذفِ المحصناتِ يوردُ قصّةَ الإفكِ المشهورة في السّيرةِ المتحدّثة عن مسّ شرفِ زوج النّبيّ ﷺ عائشة –رضي الله عنها-[15] ليكون إيرادُها بمنزلة المثالِ للقاعدةِ يزيدها و اقعيّةً وتوضيحًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ إنّ الذين أقبلوا على اتّهامِ عائشة بالزّنى هم جماعةٌ منكم، وعبّر بالمجيءِ لأنَّ شأنَ الأخبارِ الغريبةِ أن يتناقلها البُعداءُ للأقرباء فكأنّها بضاعةٌ جاؤوا بها، والإفك أشنعُ الكذب؛ مأخوذٌ مِن الأَفْكِ وهو القلب؛ ومنهُ سمّي أهلُ المؤتفكات الذين قُلِبت قُراهُم، و"عُصبة" اسمُ جمعٍ لا مفردَ له يُطلقُ على الجماعة التي يتعصّبُ بعضُها لبعضٍ؛ نبّهَ بها لتحقيرِهم بأنّهم لا يغلبُون بكيدِهم وحدةَ الأمّةِ، وقولُه: "منكم" لبعثِ التّعجّب من شرّهم وهم أقرباء إرشادًا إلى الاحترازِ منهم مرّةً أخرى مع كونِهم مسلمينَ ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لا تعدُّوا ذلك الإفك شرّا نزل عليكم بل هو خيرٌ؛ لأنّه تضمّن على الصّعيد العامّ دروسًا وعبرًا كثيرةً تستفيدُون منها فرُبّ محنٍ أنجبت منحًا، وعلى صعيدِ آلِ أبي بكرٍ رضي الله عنه وأصهارِه حيثُ صبرُوا على الابتلاءِ ونزل الوحيُ في شأنِ ابنتِهم يُبرّئها فقد اكتسبُوا أجورَ الصّبر ومراقي الفضيلة؛ ولعلَّ الآية أنسبُ لتسليتهم فَهُم من واجهَ شرَّ

---

15 وخلاصةُ الحادثة أنَّ جيش المسلمينَ لَمّا عاد من غزوة بني المصطلق سنة ٦ هـ، وخيّم ليلاً قريباً من المدينة وكانت عائشة معهم، فخرجت لحاجة الإنسان حين عرفت اقتراب الارتحال، فأضاعت عقدا لها فراحت تبحث عنه، فارتحل الجيش ظانًّا بأنّها قارّةٌ في هودجها، وتدارك الصحابيُّ صفوانَ بن المعطّل الموكّل بحراسة مؤخّرة الجيش أمرها فأوصلها بأمان، وما إن سمع المنافقُون الخبر قذفوهما بالفاحشة، وبقي الأمر على تلك الحال حتى نزلت الآية بتبرئتهما.

الفضيحةِ بالأخصِّ، وعبّرَ بنفيِ"لا تحسبوه" ثمَّ إضرابٍ و إثباتٍ"بل هو خير" مبالغةً في تصويرِ موقفٍ ملؤُه السّوء أنّهُ خيرٌكلّه لاختفاءِ ذلك مع اشتدادِ الإفكِ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ لكلِّ فردٍ من الجماعةِ المذيعةِ للإفكِ إثمه الذي يستحقُّه عند الله، وفي الآيةِ تقديرٌأي: جزاءَ ما اكتسبَ، وفي هذا تنويهٌ إلى أنّ الإشاعةَ -كما عُهدت- قد أهلكت ناسًا عبر دوائرَ أوسع من دائرةِ ظهورِها؛ ناسًا تفاوتت درجاتُهم بين ساعٍ فيها مُفتنٍ ومتكلِّمٍ بها فضُولاً وراضٍ بذيوعها خضوعًا للرّأيِ العامِّ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والذي أبرزَ القضيّة من أهلِ الإفكِ إلى أرضِ الواقعِ حتّى شاعت كالنّارِ في الهشيم لهُ عذابٌ عظيمٌ ينتظرُه في الآخرةِ، وأخبارُ السّيرةِ على أنّ المراد هنا هو: عبد الله بن أبيّ بن سلولٍ، و"كِبْرهُ" بكسرِ الكافِ: إثمهُ؛ أو بكسرِها وبضمّها بمعنى: مُعظمهُ؛ وفي كلا الحالينِ الضّميرُعائدٌ إلى الإفكِ.

ثمَّ يستأنفُ موبّخًا المؤمنين الخائضينَ في الإفكِ عمومًا ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ كان عليكم حين سمعتُم الإفك ألاَّ تظنّوا إلاَّ الخيرفي أنفُسكم إذ لم تعهدُوا عن بعضكم إلاَّ الخير، و"لولاَ" بمعنى: هلاّ؛ تلاهَا فعلُ "ظنّ" الماضي فأفادت التّوبيخ على عادتها، والأصلُ أن يقُول: ظننتُم؛ فالتفت عن الخطابِ إلى الغيبةِ لما تُوحي به من الإبعاد المناسبِ للتّوبيخ، وحينَ أظهرولم يعبّربالضّميربيّنَ أنّ شأن المؤمن أن يحسنَ الظّنّ بإخوانه، واهتمّ بذكرِالجنسينِ لأنّه ثبتَ تورُّطُهما معًا في قضيّةِ عائشةَ؛ وفي ذلكَ تلميحٌ إلى خطرِ امتدادِ ألسنةِ الإشاعةِ، وفي قوله: "بأنفُسهم" دون غيرِهم؛ إشارةٌ إلى أنّهُ قذفٌ يعودُ ضررُه إليهم ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ وزادُوا على الظّنِّ الحسنِ بينهم أن يعدُّوا ما شاعَ في حقّ بعضِهم كذبًا صريحًا؛ وسواء كان هذا في شأنِ عائشة أو غيرِها، فحكمها عام يشمل كل حالة مشابهة، ولا يحسُن حملُها إلاَّ على محملِها الأوسع في حفظِ عرضِ كلِّ مؤمنٍ، وهنا تربيةٌ رفيعةٌ بينَ الخلطاءِ عامّةً أن يستصحبُوا أصلَ من يُعاشرُونه فيُبطلُوا ابتداءً كلَّ دعايةٍ تمسُّ النّزاهة التي عرفُوها فيهم من قبلُ.

ويزيدُ على التّوبيخِ بعدمِ ظنِّ الخيرِتوبيخًا على عدمِ نقلِ الخبرعلى وجههِ المشروع ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ وهلاَّ كفُّوا عن القذفِ رأسًا حتّى يقيموا على التّهمةِ أربعة شهداءَ عدُولٍ، وهذا مستندٌ إلى قوله السّابق: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النّور: ٤]، والتّحضيضُ

هنا كسابقه مستعملٌ في معنى: اللّومِ ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ فما دام أنّهم لم يُبلغُوا خبر الزّنى بوجهه المشروعِ، ولم يقل: لم يأتُوا بهم وأظهرَ الشّهداءَ ثانيةً تقريرًا للزومهم ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فأولئك في حُكم الله كاذبون لا يُعتدُّ بنقلهم، واستعمل اسم الإشارةِ لتمييزِهم للدّلالةِ على أنّهم جديرُون بما سيُحكمُ به عليهم بعدَها، وعبّرَ بأسلوبِ القصرِ "هم الكاذبون" مبالغةً في وصفِهم بالكذبِ وكأنّه ليس ثمّةَ كاذبٌ سواهم، والعنديّةُ أفادَت فوقَ كلِّ ذلك أنّ كذبهم حقيقةٌ لا نقاش فيها لأنّ ما في علمِ الله لا يكونُ إلاَّ حقيقةً، وكلُّ ذلك تغليظٌ في التّوبيخِ لمن لم يبادروا إلى تكذيبِ الإفكِ وردِّه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ولولا ما كتب الله لكم من فضله عليكم بإحسانه وشتّى نعمه؛ ورحمته بكم في الدّنيا بالتّوبةِ وعدمِ المعاجلةِ بالعقوبةِ؛ وفي الآخرةِ بالعفوِ عنِ الآثامِ ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ للحقكم جرّاء ما خضتُم فيه عذابٌ شديدٌ لا تتصوّرونه، والإفاضةُ مستعملةٌ على طريقِ الاستعارةِ من فيضان الإناءِ بالماء لتصويرِ تجاوزِ الحدِّ، وهذا النّكير شمل كلّ من خاض في شأنِ عائشة، وأريد به عذابٌ فوقَ حدِّ القذفِ، وقيل: إنّما نوّهَ الله ﷻ بفضلِه هنا إلى رفعِ الحدِّ عن أكثرِهم، وعلى كلٍّ ففيه إغراءٌ لجميعِ الخائضينَ ليتُوبُوا حتّى الذي تولّى كبرهُ حيثُ كان بابُ التّوبة مفتوحًا.

ثمّ يُبيّنُ سببَ استحقاق العذابِ العظيم لووقعَ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ ذلك حيثُ إنّكم أخطأتم خطأً بيّنًا إذ تلقّيتُم الإفكَ بألسنتكم، وأصلُ التّلقّي التّكلُّف للّقاء، والتّعبيرُ بهذا مبالغةٌ في الذّمِّ على عدمِ التّثبّتِ، وكأنّهم صارُوا بسرعتِهم في إعادةِ الإشاعةِ يتلقّونها عن غير طريقِها الأصليِّ أي: الأذن ثمّ القلب الذي يتدبّرُ حقيقتها؛ فاستغنوا عن ذلك بأقصرِ طريقٍ وهو نقلُها باللّسانِ الذي يقذفُ بها مباشرةً ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ وتصرّحون بما لم تلمسُوا وجه الحقيقةِ فيه، وذكر الأفواه والقولُ بالألسنةِ ليصوّرَ حالة تشدُّقها حين تنفتحُ للكلام كي تقول الباطل الذي لم يحصُل لها به علمٌ؛ وهذا كما يقال للمتجرّئ على كذبٍ: قالهُ بملء فيهِ ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وتظنّون بأنّه مجرّدُ قولٍ تبوحون بهِ لكنّهُ أمرٌ عظيمٌ عند الله لما تُهتكُ به من الأعراضِ الشّريفةِ، ذمّهم على ثلاثة أمور: سوء التّثبّتِ والإسراع في إعادةِ الإشاعة ثمّ اعتقاد أنّ ذلك أمر لا بأس فيه؛ ولا شكَّ أنّ هذهِ بعضُ رواسبِ الجاهليّةِ التي تفسدُ الحياة الاجتماعيّة أرادُوا إحياءها مع الإسلام فحمل عليهم

بالزّجرِ، وحسبوا القذف هيّنًا مع أنه عظيم؛ لأنَّ ظاهر السّياقِ فيهِ أنّ الحدود قد شرّعت من قبل؛ وحسبوه هيّنا إمّا لغفلتِهم عن نصوص القانون الإلهي أو لأنّها قوانينُ لَمّا تُنفّذ بعدُ فاستهانُوا بها، وبينَ "هيّنًا وعظيمٌ" طباقٌ وهو من محسّناتِ الكلام.

ثمّ يأتي إلى توبيخٍ آخر ليدلّ على تجريمه الشّديد للقذفِ وكأنّ قليل التّوبيخ غير كافٍ فيه؛ مرتقيًا من تربيةِ إحسانِ الظنّ في المقذوف إلى إحسانِ القولِ فيه ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ وكان عليكم بمجرّد أن تسمعوا قذف إخوانكم المؤمنينَ أن ينهى بعضكم بعضًا عن الخوضِ في ذلك، وتقديمُ الظّرف "إذ" على متعلّقه "قلتُم" للتّنويه بأنّ ظنَّ الخيرِ أوّل ما ينبغي أن يطرق أسماعكم لكي يكون صفاء ما ينزلُ إلى قلوبكم داعيًا لصفاءِ ما تحكيه ألسنتُكم، واستعمل نفيَ الكونِ"ما يكون" مبالغةً في تحقيقِ انتفاء الخوضِ في الإفكِ؛ فهو أبلغُ من: ليس لنا أن نتكلّم ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ وكان عليكم أن تقولوا: ننزّهك يا الله من أن ترضى بمسّ أعراضِ عبادك المؤمنينَ بنحوِ هذا البهتانِ العظيم، أو أوردَ "سبحانك" لمعنى التّعجّب الإنكاريّ؛ وهو كقولِه: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، والبُهتانُ مصدرٌ كبرهان؛ سمّي به الإفك لأنّه خبرٌ يُبهتُ سامعه ويُدهشُه بغرابته، واكتسب بوصفه بالعظيم تنفيرا شديدا منه نظرا للآثارِ الوخيمة التي تنجرُّ عنه ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ يُذكّرُكم الله بكلّ ذلك التّأكيدِ مع التّوبيخِ لئلاَّ تعودوا لمثلِ ذلك الإفكِ والبهتانِ مطلقًا، وفي الآيةِ تقديرُ: لام النّفي أي:لكي لا تعودوا، أو حذرَ أن تعُودوا، وهذهِ التّربيةُ القرآنيةُ في معالجةِ المعصية لم تنحصر في ذنبِ القذفِ بل هي أساسٌ في كلّ إقلاعٍ عن الذّنوبِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم حقًّا أهلَ إيمانٍ؛ وجوابُ الشّرطِ محذوفٌ لمعلوميّته من المقام؛ تقديرُه: فلا تعودوا، وهذا الأسلوب مستعملٌ في تهييجِ الأنفسِ حتّى تقُول: كيف نرضى بتضييعِ إيماننا؟ بل لا نعودُ إلى القذفِ حفاظًا عليه ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ ويُوضّحُ الله لكم آياتِ الأحكامِ وغيرها حتّى تكون سهلةَ المأخذِ فتنتفعوا بها، وعبّر بالمضارعِ لإفادةِ أنّ شأنهُ التّبيين فليكن شأنُكم الاستفادة والانتفاع بما يُبيّن لكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليمٌ بما تصلُح به أحوالُكم حكيمٌ في تشريعه بما يتناسبُ معكم، وأظهر لفظَ الجلالةِ اهتمامًا بهِ في مقامِ الثّناءِ على نفسه وتقريرًا بأنَّ الألوهيّة تقتضي ذلك العلم وتلك الحكمة لنراعي لَها حقَّها.

والآيات قطعية في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها.

١٩. عبرٌوأحكامٌ مستخلصةٌ من الحادثةِ وتبرئةُ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَاللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌرَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾.

ثمَّ يفرّعُ على حادثةِ الإفكِ حُكمًا عامًّا يُستخلصُ منها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إنَّ الذين يرضون بشيوعِ الرّذيلةِ وأسبابِها في أوساطِ المؤمنينَ؛ وخصَّ المؤمنين بالذكر تشريفًا لمقامِهم، وإلا فإشاعتُها منكرٌ حتّى في غيرِهم، ووجهُ الشّيوع أنَّ المتَّهَمَ باطلاً بالفاحشةِ سيكونَ محلَّ أنظارِ أهلِ الفسادِ ليُلحقُوهُ بهم بعدَ أن كان منيعًا بشهرةِ العفّةِ؛ وأنّ إحياء الحديث عن الفواحش بله الدّعاية إليها سببٌ لإشاعتِها فهيَ تنتشرُ بقدر معرفةِ النّاسِ لها كيفَ تُؤتى وبحسب استجلابِ أنظارِهم إليها، هذا على مناسبةِ السّياقِ؛ وما أكثر وسائل الدّعايةِ اليوم! والآيةُ بهدايتِها تستهدفُها كلَّها؛ فالأدب العامّ الذي لَمّحت إليه ألاّ يُحبّ المرء لغيرِه ما لا يُحبّهُ لنفسه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لهم عذابٌ مؤلمٌ في الدّنيا بالحدِّ والفضيحةِ والهجرانِ وغيرِها من المصائب وفي الآخرةِ بعذابِ النّارِ الدّائم، هذا كلّه لأجلِ حبِّ شيوعِ الفاحشةِ الذي هو في حقيقتِه نيّةٌ خبيثةٌ ليكون الوعيد على تحقيقِها و اقعيًّا أشدّ من باب أولى؛ وعبّرعن الحبِّ بالمضارع لإفادةِ تمكّنهم فيه و أنّه ليسًا خاطرًا نفسيًّا عابرًا قد يُدفع ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله وحدهُ يعلمُ ضررَشيوعِ الفاحشةِ في

أوساطكم فشرّعَ بحدِّها وبيانِ وعيدِ أصحابِها ما يَرجِعُ بالصّلاحِ لكم، و أنتُم لا تعلمون عو اقب الأمور ونتائجها لتقدّرُوا ظروفها حقَّ التّقديرِ، وفي الآيةِ ما عُرف عندَ عاشقي محسّناتِ الكلامِ بطباقِ السّلبِ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ ولولا فضلُ الله عليكم بالنّعم ورحمتُه بتكفيرِ الذّنوبِ بعد التّوبةِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ولولا أنّهُ أهلٌ للرّ أفةِ بكم والرّحمةِ بضعفِ تفكيركم في المآلاتِ؛ وجوابُ "لولا" محذوفٌ -على نحوِ سابقه- لقصدِ التّهويلِ وكأنَّه لا جواب سيفي به؛ وتقديرُه: لَما بيّنّا لكم ولوجدتُم منّا جزاءً لا يخطُر ببالٍ! واختار لفظَ "رؤوف" هنا لمناسبة انتشالِ الأمّةِ من جحيم الرّذيلة، وإلى هذا الموضع تتمُّ الآيات العشر التي نزلت معًا في تبرئة عائشة رضي الله عنها.

ويختمُ قصّةَ الإفكِ بالتّحذيرِ ممّن كانت له اليدُ الطّولى في كلّ معصيةٍ؛ مخاطبًا المجتمع المؤمن بعدَ أن هدأ اضطرابُه بهذه الو اقعة ليعتبرَ بها من كُلّ زو اياها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يا أهل الإيمان لا تسلُكوا طريق الشّيطان الذي يدعوكم إليه فعلاً أو تركًا، وعبّر بالخطوات تمثيلاً لهيئةِ لزُومِ الاتّباع؛ وكذلك شأنُ طرقِ الرّذيلةِ لا يعرضُها الشّيطانُ بصراحةٍ بل يستدرجُ إليها حتّى إذا أنس من المغرورِ أنّه ارتاحَ لَها أوقعهُ فيها؛ فحذّر الله من الخطوةِ الأولى لِعلمه أنّها دافعةٌ إلى المنتهى الوخيم ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ومن يستجب لداعي الشّيطانِ، ولم يقل: ومن يتّبعها؛ زيادةً في التّحذيرِ من الشّيطانِ وخُطو اته، وجوابُ الشّرطِ محذوفٌ تقديرُه: فإنّه سيقعُ في المعصيةِ ويبوء بالخسران؛ وقد قامت علّة الجوابِ مقامه وهي: ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ لأنّ الشّيطان يدعُو إلى الفحشاءِ والمنكر؛ والضّميرُ عائدٌ إلى الشّيطانِ لأنّه هو المعرُوف بذلك، ومفعولُ "يأمرُ" محذوفٌ لقصدِ العمومِ تنويهًا بأنّهُ لا يقتصرُ على إغواءِ أحدٍ دون أحدٍ، والتّعبيرُ بالأمرِ دلَّ على أنّهُ لا يزالُ يدعو حتّى يُغوي فكأنّهُ صارَ بذلك آمرًا، فصارَ حاصلُ الشّرطِ وجو ابه: فمن يتّبع خطواتِ الشّيطانِ فسيفعلُ الفحشاء والمنكر، والفحشاء سوءٌ شديد القبحِ لذاتِه والمنكر ما تُنكرُه القلوب المستقيمة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ولولا ما كتب الله من فضله عليكم بتشريعه الحكيم ورحمته بكم بالهدايةِ لَما أخذ بيدِ أحدكم أبدًا إلى تطهيرِ قلبِه من دنسِ الذّنوبِ والارتقاءِ به إلى الفضيلةِ، وفي هذا امتنانٌ عامٌّ بتنجيةِ عبادِه من الشّيطانِ المتربّصِ؛ وامتنانٌ آخر لمن نال الحدَّ لتكفير معصيةِ القذفِ أو غيرِها بأنَّ الله لو شاءَ لم يُشرّع له ذلك لتطهيرِه ولعاجله بالعذابِ

الأشدّ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ ولكنَّ الله أرادَ بواسع فضلِه ورحمته أن يهدي إلى الحقّ من شاءَ من عبادِه وفق سننٍ قرّرَها في ذلك، وفي هذا تنبيهٌ إلى الثّناءِ على الله على إرشادِه إلى سبُلِ التّوبةِ بعد الاستفادةِ من ثمارِها الطّيّبةِ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميعٌ لتوبتِكم عليمٌ بنو اياكم وإخلاصكم، وأعادَ لفظَ الجلالة اهتمامًا به في مقامِ الثّناء؛ ولتجري الجملة باستقلالها مجرى المثل، وأوردَ الصّفتينِ"سميع،عليم" بالمبالغةِ تأكيدًا لحصولِ آثارِهما.

وفي مقامِ التّذكيرِ بفضلِ الله يدعو المتضرّرينَ من الو اقعةِ ألاَّ ينتقموا ممّن آذاهم إرغامًا للنّفسِ ومخالفةً للشّيطانِ الذي لم يترك إغواءهم رغم صلاحهم، ففي حديثِ عائشة الطّويل الذي حكت فيه قصّةَ الإفكِ[16]: ...فلما أنزل الله هذا في بَراءتي، قال أبو بكر الصّديق ﷺ وكان يُنفِق على مِسطَحِ بن أَثَاثَةَ لِقرابته منه: والله لا أنُفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ ولا يحلف ذوو الفضلِ في الدّينِ والسّعةِ في المال منكم، و"يأتل" من الأَلِيَّة مشتقٌ من الأُلُوّ بوزنِ العُلوّ وهو التّقصير؛ وعليهِ فأكثرُه حلفٌ على تركٍ أو امتناعٍ، ومنه الإيلاء: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، ورأى بعضٌ أنّه عدَّ تصميمهم الشّديد على القطيعةِ بمنزلةِ الحلفِ؛ لأنَّ الحلف الشّرعيّ له ضوابطه ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا يحلفُوا على قطعِ صلةِ مَن كان مِن ذوي القرابةِ ومن المساكين وممّن نال شرف الهجرةِ في الله، وفي الآيةِ تقديرُ: أن لا يُؤتُوا، وجمعُ هذهِ الصّفاتِ مُومئ لمعنى: من وجدت فيه واحدةٌ استحقَّ الصّلةَ فكيف بمن جمعها! وخصَّ الهجرةَ بالذّكرِ لشرفِها لأنّها ليست معيارًا يدعو إلى لزومِ الإنفاق؛ أوليؤلّفَ قلبَ أبي بكرٍ بصلةٍ تجمعُه بمسطح وهو أنّه ممّن شاركَ معه في الهجرة، والآيةُ نصٌّ في النّهي عن الحلفِ على قطيعةِ القرابةِ والتي تُعدُّ من الحلفِ على المعصيةِ ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ وليُبادرُوا إلى العفوِ والصّفحِ عن زلاّتِ إخوانِهم، وصفحُ الشّيء وجهةُ الذي يظهرُ به، والصّفتانِ بالتّرقّي فالعفوُ عبارةٌ عن محو ضغينةِ القلبِ، والصّفحُ الإقبالُ على المعفوّ عنهُ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ألاَ تريدُون أن يغفرَ الله لكم بحُبّكم الخير لمن آذوكم وإن أرادُوا الشّرَّ لكم بحبّ شيوعِ الفاحشةِ؟ والاستفهامُ هنا ظاهرُه إنكارٌ وباطنُه تحضيضٌ، فكما تُحبّون المغفرة من الله اعفُوا عمّن أوصاكم الله بالعفوِ عنهم،

---

16 رواه البخاري، ك: الشّهادات، ب: تعديل النّساء بعضهن بعضا، ر: ٢٦٦١، (١٧٣/٣).

والخطابُ بالجمعِ تشريفٌ لأبي بكرٍ؛ ويُحتملُ أنّه خاطب أفرادًا عديدينَ كان لهم نفسُ موقفه وهو أمرٌ بديهيٌّ حاصلٌ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله أهلٌ للمغفرةِ الواسعةِ والرّحمةِ العميمةِ؛ فاقتدُوا بمغفرته في العفوِ وبرحمتِه في الإنفاق، ولَمّا سمع أبو بكرٍ الآية قال: بلى إنّي لأحبُّ أن يغفر الله لي؛ فأعادَ النّفقة على مسطح وقال: والله لا أنزعُها منهُ أبدًا، وكفّر عن يمينه، والآيةُ -كما نبّهَ أهلُ العلمِ- ممّا وردَ في مدحِ الصّدّيقِ صاحبِ رسُول الله ﷺ.

وبعد حكايةِ قصّةِ الإفكِ والنّهيِ عن العودِ إلى القذف أبدًا أتى بوعيدٍ إجماليٍّ لمن أحبّ البقاء على غيّه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إنّ الذين يتّهمون المؤمناتِ بالفاحشةِ وهنَّ بعيدات عنِ التّفكيرِ فيها كلّ البعدِ لحصانتهنّ حصانةً حسّيةً بالزّواج الحلال وحصانةً رُوحيّةً لعفّتهنّ بالإيمان والأخلاق، وجاء "يرمون" بالمضارع للدّلالة على الاستمرار، والغفلةُ هنا غفلةٌ عن أسبابِ الفاحشة لا عن القذفِ الذي قد يُرمين به، والآية شملت كلّ مؤمنةٍ وزوجات النّبيّ بالأخصِّ، وخصّت من هذهِ صفتُهنّ "المؤمنات الغافلات" تشريفًا؛ وإلا فالقذف حرام عمومًا حتّى لمشركة إلاَّ ببيّنةٍ ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لحقتهم لعنة الله في الدّنيا بإقامةِ الحدِّ وحُكم الفسقِ وسلبِ أهليّة الشّهادة ثمّ لحقتهم أيضًا لعنتُه في الآخرةِ فأبعدُوا عن الجنّةِ، وأصلُ اللّعنِ للهِ فهو يلعنهم، وقد يُفوّضُ له مِن خلقِه مَن تأهّل له ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولهم في الآخرةِ عذابُ النّارِ الأبديّ، وهذا الوعيدُ أشبهُ بوعيد: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النّساء:٩٣] فهو لا يتنافى مع قبولِ توبة من تاب إذا عاجل بها قبل الموتِ.

وزيادةً للتّهويلِ عليهم قال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذلك اليوم الآخِر الذي تشهدُ فيه ألسنةُ الأشقياء مع أيديهم وأرجلِهم على ما اكتسبوهُ من الآثام، وشهادة الجوارح أن يخلق الله لها قدرةً على الإفصاحِ بما عاينتهُ وعايشته، وهذهِ الشّهادةُ شملت كلَّ الأعمال؛ وتخصيصُها في سياق القذفِ دلَّ على عظمِ إثمه، والشهادة تصدُر عن كلِّ الأعضاء وخصَّ هذهِ لأنّ لها علاقة مباشرة مع إذاعةِ القذفِ، فهم ينطقون بالقذف ويشيرون بالأيدي إلى المقذوفات ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف[١٧]

[17] الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج: ١١، ص:٢٦٣.

وهنا تعريضٌ بحالِ القاذفِ السّيّئةِ أي مع كونِه مزرعة الآثامِ هو يشتغلُ بغيره؛ ولعلّه كان منه ذلك لأنّ العاصي من شأنه أنّه يُحبُّ ألّا يُرى وحدهُ في إثمه ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ في ذلك اليومِ يجدون من الله جزاءهم الحقيقيّ، وفي هذا تسليةٌ للمتضرّرين بالقذفِ ألّا يعجّلُوا بالانتقامِ في الدّنيا، ووصف جزاءهم بالمصدرِ"الحقّ" مبالغةً؛ ونفسُ النّكتةِ في: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ وسيتيقّنون يومها بأنّ الله هو صاحبُ القولِ الفصلِ خلقهم من أجلِ هدفٍ بيّنٍ ثمّ بعثهم للحساب وليس لاعبًا ولا عابثًا، و"الحقّ" من أسمائه تعالى؛ و"المبينُ" خبر ثانٍ لـ"أن" أو صفةٌ للحقّ.

ثمّ يقرّرُ براءةَ عائشةَ من الإفكِ بكونها اختيرت بعفّتها لتزوّجِ أعفِّ النّاسِ مُحمّد ﷺ ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ الخبيثةُ من النّساء يُلائمها الخبيثُ من الرّجالِ؛ والخبيثُ من الرّجالِ تُناسبُه الخبيثةُ من النّساء، وبدأَ بالخبيثاتِ على حدِّ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ ومناسبةً لتبرئةِ عائشة بأنّها ليست كذلك، كما بدأَ بوصفِ الخبثِ وأخّر الطّيب مجاراةً لادّعائهم في عائشة كي يُبطله، وهذا تضمّن تعريضًا للمنافقين القاذفين والمنافقاتِ القاذفاتِ بأنّ القاعدة تنطبقُ فيهم لخُبثهم ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ والطّيّباتُ من النّساء لا يرضين إلاّ بالطّيّبين من الرّجال والطّيّبُون من الرّجال لا يحبّذون إلاّ الطّيّباتِ من النّساء، وفي هذه المقابلةِ إطنابٌ غرضُه تقريرُ القاعدة و إثباتُ حُكمها، والخبثُ والطّيبُ هنا منحصران في الجانبِ الجنسيّ؛ فالحُكم لا يتعارضُ مع زواجِ بعضِ الأنبياءِ من كافراتٍ كنوحٍ عليه السلام، وهذه الأوصافُ كلّها جرت على موصوفاتٍ محذوفةٍ يدلُّ عليها السّياق، أي النساء الخبيثات للرجال الخبيثين... وهكذا ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أولئك الطّيّبون والطّيّبات بريئون ممّا يقُول النّاسُ فيهم من البُهتانِ براءةً أصليّةً لأنّهم منبتُ الطّيبِ، وعبّر بـ"ممّا يقُولون" عن الإفكِ وكلّ ما أحدثه تنويهًا بأنّه لا جذورله في أرضِ الو اقع بل هو مجرّدُ أقوالٍ ستزول، ومن لطائفِ ما يُلاحظ أنّ الله تولّى تبرئة عائشة بإنزالِ قرآنٍ يُتلى تكريمًا لها ولزوجِها ﷺ ولم يكتفِ بتبرئتها على يدِ شاهدٍ عامّ كيُوسف أو نبيّ في المهدِ كمريم -عليهم السّلام- ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ تنالُهم مغفرةُ الله على كُلّ حالٍ لأنّهم أهلُ التّوبةِ؛ ويفوزون بالعطاءِ الكريمِ عنده ثوابًا على الصّبرِفي الدّنيا، وأصلُ الكرمِ في الله وجعلهُ في الرّزقِ مجازًا لأنّه من الله، وإلى هنا تمّت تذييلاتُ أحكامِ القذفِ وقصّة الإفك.

٢٠. آدابُ الدّخولِ إلى البيوتِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾.

وسدًّا لمنافذِ الرّذيلةِ أعقبَ التّحذيرَ منها ببسط سبُل الوقايةِ وحفظِ نظامِ الحياةِ الاجتماعيّة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ يا أهل الإيمان لا يحلُّ لكم أن تدخلُوا بيوتا غير بيوتكم إلاَّ بآدابٍ، وذلك لأنّ البيوت اتّخذت لمقاصدَ أهمّها طلبُ السّترِ والحفظِ والدّخول المباشر مبطلٌ لمقصدِ اتّخاذها، ونادى أهل الإيمان بالخصوص لأنّهم من يُظنُّ فيهم الالتزام بمقتضى إيمانهم، والإضافةُ في البيوتِ "بيوتكم" لأدنى ملابسةٍ فالصّبيُّ والمرأةُ ونحوهما وإن لم يملكا البيت فبيتُ من يسكنان عندهُ بيتٌ لهما ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ لا تدخلُوا حتّى تستأذنُوا وتُلقُوا السّلام مع الدُّخول،[١٨] يقُول القطب: "وكلٌّ من الاستئذانِ والتّسليمِ واجبٌ".[١٩] وعبّر بالاستئناسِ عن الاستئذانِ مجازًا لأنّ المستأذِن يرجو بسببِ استئذانه حصول أُنسٍ في قلبِ مَن يستأذنُه؛ وفيه إشارة إلى حكمة الاستئذان؛ إذ من شأنِ ربِّ البيتِ أن يستوحش الدّاخل عليهِ فإذا أذن له فقد دافع تلك الوحشة. وقيل: الاستئناسُ مرادفُ الاستئذان؛ فيكون التّعبيرُ به من براعةِ الإيجاز، وإتباعُ الاستِئذان بالتّسليم اهتمامٌ بشأنه؛ وتبيينٌ لإحدى مواضع تشريعه؛ وحكمتُه إشعارُ المدخول عليهِ بالأمنِ بعد أن أعطى الإذن بالدّخولِ أو قبل إعطائه؛ على اختلافٍ بأيّهما يُبدأ؟ ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ذلك الاستئذانُ والتّسليم أفضلُ لكم من الدّخولِ الفجائيِّ الذي سيُسبّبُ لكم رُؤيةَ ما لا تتوقّعُون ممّا قد تنعكس عنهُ ردودُ فعلٍ وخيمة عليكم، أو الإشارةُ إلى الامتناع عن الدّخول بأنّه أفضلُ؛ حيثُ يعتقدُ

---

[18] روي أنّ رجلاً استأذَن على النبي ﷺ وهو في بيت، فقال: آلجُ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: (اخرِج إلى هذا، فعلّمه الاستئذانَ، فقل له: قُل السَّلام عليكم، آدخل؟)، فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، آدخل؟ فأذنَ النبي ﷺ فدخل. وقد بيّن الحديثُ طريقةَ الاستئذان والتّسليم فيما رواه أبو داود، ك: الآدابَ، باب: كيف الاستئذان، ر: ٥١٧٧، (٤٧٩/٧).

[19] امحمد بن يوسف أطفيش، **تيسير التّفسير**، ج١٠، ص٩٣.

الكثير بأنّ حقّهُ في رُؤيةِ من قصدهُ ثابتٌ لا ينبغي أن يرجع دونه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ شُرع ذلك لكم رجاء أن تستحضرُوا عظمة التّشريع في الاستئذانِ وإلقاءِ السّلام فتلتزموهُ امتثالاً لله.

ومبالغةً في تأكيدِ الحُكم السّابقِ يقُول: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فإذا لم تُصادفُوا في البيت الذي تُريدُون دخوله أحدًا من أهله فلا يحلُّ لكم أن تقتحموهُ حتّى يكون عامرًا فتستأذنُوا أهله بالدّخول ويأذنُوا لكم فيه، وحكمة هذا دفعُ مظانّ السّوءِ في الدّاخلِ ولو كان صافِي المقصدِ كأن يسترجعَ شيئًا لهُ فيهِ ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ وفي حالِ لم يستقبلكم أهلُ البيتِ لظرفٍ مَّا فقدّرُوا ظروفهم ولا تلحُّوا عليهم، والأمرُ بالرّجوع مستعملٌ في معنى: ترك الطّلب، وهو قولٌ صريحٌ؛ بأن يقول له صاحب الدار ارجع، أو يُفهم من لسانِ الحال؛ بأن لا يأذن له مع سماعه استئذانه، أو ممّن ينوبُ عن صاحبِ الدّارِ كالجارِ؛ وصيغةُ الفعلِ "قيل" تُلوّحُ إلى ذلك، وعبّر بفاءِ التّعقيبِ"فارجعوا" تحريضًا على سرعةِ الامتثالِ؛ كما شمل الأمر بالرّجوع كلَّ ما من شأنه أن يُزعج أهل البيت كالاعتصام أمام البيتِ، و اندرج هنا الاتّصالُ الهاتفيُّ فإنّه نوعٌ من طرقِ حُرماتِ النّاسِ فإن رأى المتَّصَلُ به ردَّ المتّصِلِ وعدم الرد على مكالمته في ذلك الوقت فما على المتصِل إلاَّ أن يعيدَ الطّلب لاحقًا ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ فالالتزامُ بالرّجوع أسلمُ لقلوبكم؛ لأنّ رفيع الأدبِ يُقدّرُ أحوال النّاسِ المختلفة ويعلمُ أنّ من تمامِ صلتِهم مراعاة ظرُوفهم وأوقاتِهم حفظًا للرّوابط والعلاقاتِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ واعلموا أنّ الله مطّلعٌ على أعمالِكم وسيُحاسبُكم، وتضمّن هذا وعيدًا لمن دأبه الإثقال أو الاقتحام والتّجسّس.

ويخصّصُ من عمومِ التّحريمِ السّابقِ البيوت غير المتّخذةِ للسّكنى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ لا حرج إن دخلتُم بيوتا أُعدّت للنّفعِ العامّ كالنّزل التي وُقّفت للسّبيلِ والمكتبات والمساجِد والإدارات العامة وغيرِها؛ إن رغبتُم في الانتفاع بها، و"غير مسكونة" مؤوّلٌ بغيرِ مملوكةٍ لأحدٍ يحقُّ له أن يمنعَ الدّاخل أو يشترطَ له الإذن، و"متاعٌ" بمعنى المصدر أي: تمتّعٌ بدفءٍ أو بردٍ أو حفظِ متاعٍ أو راحةٍ أو قضاءِ مصلحةٍ وغيرِها، وجوازُ هذا معلومٌ واضحٌ ولعلَّ نفيَ الجناحِ مؤوّلٌ بالامتنان بتسخيرِ تلك البيوتِ أو هو توطئةٌ لتحذيرِ مَن لا يبتغُون منها منفعةً وغايةُ دخولهم تجسّسٌ أو سرقةٌ ونحو ذلك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ واعلموا بأنّ الله مطّلعٌ على ما تظهرُون من

الأعمالِ وما تُخفون منها، وفي هذا تحذيرٌ جليٌّ من استغلالِ فراغِ البيوتِ أو ملكيّتها العامّة ذريعةً للفسادِ الدّينيّ أو الأخلاقيّ، وبين "تُبدون وتكتمون" طباقٌ.

٢١. الأمر بغضِّ الأبصارِ وحفظِ الأعراض

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾.

وبعد أن أوصى أهل الإيمان بالتزام آداب الاستئذان أرشدهُم إلى غضِّ الأبصارِ عمّا قد تسقُط فيه أعيُنهم من الحرامِ كما أرشدَهم إلى حفظِ الفرُوج لئلاَّ تُفتنَ أو يُفتنَ بها ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أرشد أيّها الرّسُول ﷺ أهل الإيمان إلى ردّ أبصارِهم عمّا حرّم الله عليهم من العوراتِ ومن النّساءِ الأجنبيّاتِ خاصّةً، وفي الآيةِ إيجازٌوالأصلُ: قل لهم غضُّوا يغضُّوا، و إيجازٌبالحذفِ، لأن الغض المأموربه ليس عن كل شيء، و إنما عن الحرام،ولم يصرح بما يُغض عنه البصر اكتفاءً بما هو مستقرٌّ في الأذهانِ بأنّه الحرام، لأنّهم ليسُوا مأمورين بغضِّ أبصارِهم إلاّ عنه، واستعمل الأمر بالقولِ"قل" تنويهًا بأنّ هذا ممّا ينبغي أن تحصل فيه الذّكرى تعاونًا على البرّ، والغضُّ الخفضُ والنّقص؛ وعبّر بـ"من" التّبعيضيّةِ لأنّ أحوال البصرِيعسُر التّحكّم فيها جميعًا؛ وهو شاملٌ لكلّ ما من شأنِه أن يُوقع في حرامٍ كالفواحش من بابٍ أولى وغيرها ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وأرشدهم إلى إبعادِ فرُوجهم عن مواضعِ الشّبهةِ والحرام؛ وقدّمَ الأمربغضِّ الأبصارِلأنّ النظرنتيجته هتك حرمة الفرُوج، أوجزءَا الآيةِ متقابلانِ فكأنّه قال: غضُّوا أبصارَكم إذا فُتنتُم واحفظوا عوراتِكم لئلاَّ تفتنُوا غيرَكم؛ فحفظُ الفرجِ شاملٌ لكلّ دواعي إفسادِه ولم ينحصر في ستره، ولم يقل هنا: من فرُوجِهم؛ لأنّه لا يحلُّ من الفروج للأجنبيّ شيءٌ بخلافِ النّظرِ فيجوزُفي أحوالٍ ومواضعَ ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ ذلك الغضُّ والحفظُ أفضلُ لهم في إبقاءِ كرامتهم ودفعِ الرّيبةِ عنهم فليأخذوا بهما؛ وأمّا التّساهل مع أوّل المعصيّة فسببٌ لسلوكِ

ما يستقبلُ من طريقِها فليحذرُوهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ إنّ الله مطّلعٌ عالمٌ بجميعِ خفاياهُم؛ والمراد: فليعلمُوا ذلك ليكون لهم حافزًا على الامتثالِ لنيلِ الثّوابِ و اتّقاءِ العقابِ.

ومقابلةً لأمرِ المؤمنين يُوصي الله الرّسُول ﷺ أيضًا بإرشاد المؤمنات ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ وأوصِ المؤمنات بأن يقصرنَ نظرهنّ فيما أحلّه الله ولا ينظرنَ إلى العوراتِ ومفاتِن الرّجال؛ وأوصهنّ أيضًا بمنعِ فروجهنّ عن كلّ مواضع الشّهةِ والحرام، وتخصيصُ الجنسينِ بالأمرِ تأكيدٌ لهما بوجوبِ الالتزامِ معًا؛ و إيماءٌ إلى اختلافِ طبيعةِ هذا عن ذاك في دواعي الغريزةِ والاشتهاء. وزادهنّ تكليفًا بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ وأوصهنّ بألّا يُظهرن زينةً تتعلّقُ بهنَّ؛ فالزّينةُ في المرأةِ خَلقيّة وفي ذلك مراتب تختلفُ حسب أعرافِ النّاسِ ما لم يؤد إلى كشف ما يجب ستره؛ وزينةٌ مكتسبةٌ خارجة عن خِلقةِ المرأةِ باللّباسِ والحليّ ونحوِ ذلك ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ باستثناءِ زينةٍ ظهرت خطأً بلا نيّةِ سوءٍ أو بنيّةِ قضاءِ ضرورةٍ كالاستشفاءِ والشّهادةِ، وقيل: "زينتهنّ" بمعنى: مفاتنهنّ؛ فالاستثناءُ عائدٌ إلى ما أجازَت السّنة كشفهُ وهو الوجه والكفان، أو إلى هيئتهنّ من قامةٍ وتوسّطٍ ؛ فإنّ الرّجال مذاهبُ في تخيّلِ المرأةِ حتّى من خلالِ ذلك؛ ويُؤيّدُ هذا أنّه سيذكُر الضّرب بأرجلهنّ الذي هو علامةٌ لأمرٍ خفيٍّ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وأوصهنّ بأن يُسدِلن خمارَ رُؤوسهنَّ ليستقرَّ على صدورهنّ؛ وخُصَّ التّنبيه لذلك الموضع لأنّهُ أصلُ الاختلافِ بينَ سترةِ المرأةِ والرّجلِ، وهنَّ مأموراتٌ بسترِ كُلّ مواضع انكشافهنّ، والتّعبيرُ بالضّربِ على طريقِ الاستعارةِ لحالِ إثباتِ الشّيءِ على الشّيءِ؛ ففيه مبالغةٌ في إحكامِ الحجابِ و إتقانِه، والخُمُر جمعُ خِمار كجُدُر وجدار؛ وأصلُ خمّرهُ غطّاهُ؛ ومنها الخمر لأنّها تحجبُ العقل، والجيُوب جمعُ جيبٍ وهو حدودُ الثّوبِ مع الرّقبة.

ثمّ يُبيّنُ من يحلُّ للنّساءِ إبداءُ زينتهنّ لهم حينَ ضمِنَّ الأمان من جانبِهم إلى نسبةٍ بعيدةٍ دفعًا للحرجِ لكونهنَّ يُخالطنهم كثيرًا ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يُعيدُ النّهيَ تأكيدًا وليُمهّد للاستثناءِ بعد أن طالَ الفصلُ ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلاّ لأزواجِهنّ، والبُعولة جمعُ بعلٍ وهو في عرف النّكاحِ الزّوجُ، وبدأَ به لأنّه أولى بالمرأةِ وأخصُّ وكشف زينتِها له أوسعُ من غيرِه، ثمّ يذكُرُ مَن لا يحلُّ لها الزّواجُ بهم؛ فهؤلاءِ ولو أظهرت لهم زينتها ليس ثمّةَ كبيرُ خطرٍ إذ الطّباع السّليمةُ تنفُر من اشتهاءِ القريبات ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أو

آباءِ المرأة مهما علوا من جهةِ الأبِ والأمّ أو آباءِ الزّوجِ مهما علوا من جهةِ الأبِ والأمّ أيضًا ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أو أبناءِ المرأةِ مهما سفلُوا أو أبناءِ زوجِها من امرأةٍ غيرِها مهما سفلُوا كذلك ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أو إخوان المرأةِ من الأبِ أو الأمّ أو أبناءِ إخوانِها أو أبناءِ أخواتِها مهما بعدوا، ولأنَّ الدّائرةَ هنا أوسع استعمل "بني" دون "أبناء" لأنّه أقوى على دلالةِ العموم؛ كما نقُول: بنو آدم، وكلّ من سبق سواء من النّسبِ أو الرّضاع، وذكرت الآية اثني عشر مستثنى، ومن لم يذكر كالأعمامِ والأخوال اندرجَ تحت مذكورٍ بتأويلٍ أو بالسّنّةِ ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ ولها أن تُبدي زينتها أمام جماعة النّساء المسلماتِ اللاّئي تلتقي بهنّ، والإضافةُ إلى المؤمناتِ دلّت -كما نبّه العلماء- على وجوبِ حجبِ محاسنِ المؤمنةِ أمام المشركةِ أو الكتابيّةِ لأنّها ليست محلّ أمانٍ لتحفظَ عِرضها بألّا تتحدّث به للرّجال ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ وتُظهرُ زينتها كما شاءت أمام إمائها وعبيدها ولو كانوا مشركين لأنّ في التّستّرِ عنهم حرجًا وهذا ما داموا تحتَ سُلطتِها؛ و"ما ملكت اليمينُ" كنايةٌ عن العبيدِ والإماء ولعلّهُ اختار الكناية تنبيهًا لتلك السُّلطة عليهم ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ وجازَلها كذلك إبداءُ زينتِها أمام مَن ليس له ميلٌ إليها من الرّجالِ إن كان صاحب تبعيّةٍ وعديم إربةٍ، و"الإربة" الحاجةُ وأريد بها هنا حاجةُ الاستمتاع بالنّساء، وفي "التّابعين" إشارةٌ إلى علاقةٍ غيرِ النّسبِ كالخدمةِ والاستئجارِ والكفالة ممّا يضطر المرأةَ للاقتراب من أولئكَ الرّجال؛ فأبيح معهم إبداء الزّينةِ إن كانُوا عديمي الاشتهاء كالمجبوب والبُله والحمقى ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ وكذا تكشفُ زينتها لمن هو في مرحلةِ الطّفولةِ ولم تبدأ له شهوةٌ وتلذّذٌ بمفاتنِ النّساء، وعدمُ الظّهورِ على عوراتهنَّ كنايةٌ عن عدم تفكيرهِ فيهنَّ، و"الطّفل" أريدَ به الجنس فيُطلقُ على المفردِ كما يُطلقُ على الجمع، وخصَّه بالذّكرِ اهتمامًا به لأنّه من شأنه أن يُغفلَ عنه أو يُتساهلُ فيه.

وبعدَ التّفصيلِ في الزّينةِ الظّاهرةِ يُنبّهُ إلى ما يُسقطُ المغزى المرجوّ من حجابِ المرأةِ فيكشفُها مع كونها في الظّاهرِ مستورةً ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ولا يُسمعن الرّجال صوت أقدامهنَّ على الأرضِ[20] ، أوصوت مايخفين من حليهن كالخلخال، ويدخل في ذلك النعل ذو الكعب

[20] تحكي الروايات أنّه كانت المرأةُ تتخذُ خلخالاً في رجلها فإذا هَمّت بأن يسمع صوتَ قدميها ضربت خلخال الرجلِ الأول بالثّاني أو تحمست فيضرب الخلخال على جانبٍ صلبٍ من حذائها ليحدث صوتًا، ولعل هذا قليل اليوم؛ وقد تطور إلى رفع مؤخّرة الحذاء والتّفنّن في تصميم كعب تحته يُوقع صوتًا عند المشي، والضّلالُ واحدٌ وإن اختلفت هيئاتُه باختلافَ أحوالِ النّاسِ وأزمنتهم.

العالي الذي يحدث صوتا عاليا، لئلاَّ تذهبَ مخايلُ الرجال إلى أنّهنّ فاتنات فيسبحُون بأبصارِهم أو تفكيرِهم فيهنّ، وإذا كانت العلّة هي شدّ انتباهِ الرّجالِ إليهنَّ فالنّهيُ و اقعٌ أيضًا على كلّ ما من شأنه أن يُحدث ذلك؛ كالرّقصِ أو ترقيقِ الكلام أو الإنشادِ على مسامع الرّجالِ، وفي عُموم السّياقِ إباحةُ الزّينةِ للمرأةِ متزوّجةً وغير متزوّجةً في حُدود المشروع.

ولَمّا كان غضُّ البصرِ وحفظ الفرُوج مجال الخطأ وميل النّفسِ ولو إلى قليلٍ التفتَ إلى كلّ المخاطبينَ يدعُوهم إلى التّوبةِ الماحيةِ لآثارِ التّقصيرِ ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وبادرُوا بالإنابةِ إلى الله جميعًا يا أهل الإيمان بامتثالِ جميع ما أمرواجتنابِ كُلّ ما نهى راجينَ الفلاح بخيرِ الدُّنيا والآخرة، والآيةُ من جوامع الوصايا القرآنيّة؛ فقد ضمّت أشرف الأعمال وهي التّوبة؛ وتدفّقت تفاؤلاً ورجاءً مناسبةً لجلبِ المقصّرينَ؛ وامتلأت عدلاً ورحمةً فنادت الجميع ولم تُقصِ أحدًا؛ وذكّرت بالرّجوع إلى المعبُودِ الواحد تنويهًا بمقامه الأعظم، وشرّفت أهل الإيمان إذ خصّتهُم بالذّكرِ.

٢٢. الدّعوةُ إلى التّحصينِ بالزّواج والتّحذيرُ من الرّذيلةِ

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌرَحِيمٌ (٣٣)﴾.

وبعد أن طال الحديث في علاجِ الأحوالِ الاجتماعيّة بين الجنسينِ يعرض الحلّ الأمثل لصناعةِ العفافِ ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ ساعدُوا مَن لم يتزوّج من أبنائكم وبناتكم كي يُحصّنَ نفسهُ، والأيامى جمعُ أيّمٍ وهي مَن افتقدت زوجها بفراقٍ أو موتٍ ثمَّ توسّع إطلاقُه إلى البكرِ والذّكرِ غيرِ المتزوّجِ على كُلّ الأحوالِ، ووجّهَ الأمر إلى جمهورِ المجتمع لأنَّ تحصينَ أبنائه يرجعُ بالفائدةِ لهُ، والأمرُ للوجوبِ على ظاهرِهِ إلاَّ إن ضُمنت العفّة؛ وقد تضمّنَ زجرًا لمن يُعطّلُ الزّواجَ لسببٍ غيرِ مبرّرٍ ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ

عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ وساعدُوا على الزّواجِ أيضًا أهل الصّلاح الدّينيّ من عبيدكم وإمائكم، وخصَّ الصّالحين لئلاَّ يظنَّ أسيادُهم بأنَّ الصّلاحَ كافٍ لعفّتِهم بل عليهم أن يدركوا رفعًا للعنتِ عنهم أنّ لهم حقُوقًا إنسانيّةً فطريّةً لا تسقُط؛ وعلى هذا فغيرُ الصّالحين تزويجُهم أوكدُ، وحمل بعضٌ معنى الصّلاح على أهليّةِ الزّواج وهو محملٌ حسنٌ ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإن كان طالب الزّواج من ذوي الفقرِ فسوف يرزقُه الله من خزائنِ رزقه الواسعة ما يكفيه لتغطيةِ نفقاتِه العائليّة بعد الزّواج، وذلك لأنَّ المتزوّج قد يُرزقُ ولدًا موهوبًا أو تُغدقُ عليهِ زوجُه بعملِها أو يُكرمُه أصهارُه فيكون زواجه سببًا لنهوضه ماديًّا؛ أو ييسر الله له عملا مناسبا، والله قد جعل من سننِ توسعةِ الأرزاق توسيعَ العلاقات وتوطيدَ الرّوابط، ومحملُ الشّرطِ لا يقتصرُ على الصِّنف المذكورِ "الفقراء" فحتّى إن تحقّقَ الغنى زاد من واسعِ فضله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والله واسعُ الفضلِ عليمٌ بأحوالِ عبادِه، والواسعُ إحسانُه ونُسبت الصّفةُ إلى ذاته مجازًا، والآيةُ دليلٌ على أنّ الزّواج من مفاتيح الغنى.

ثمَّ يُوصي الأيامى بالعفافِ إذا لم يتيسّر زواجُهم أو تيسّر وطالت مدّة انتظارِه ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ وليحرص أولو الضّعفِ المادّيّ أو الصّحّيّ على العفّةِ الأخلاقيّةِ؛ بالصّومِ وملء الفراغِ بما ينفعُ؛ فلا يقربُوا الفواحش كما لا يستعجلُوا الكسب الحرام للزّواج، والسّينُ والتّاء في "ليستعفف" للتّكلّف والمبالغة في طلبِ العفاف؛ والأمرُ للوجوبِ فلا يجوزُ قضاءُ الشّهوةِ إلاّ بالزّواج المشروع، فعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: (ثَلاثَةٌ حقٌّ على الله عونُهُم: المجاهدُ في سبيل الله، والمكاتِب الذي يُريد الأداءَ، والنَّاكِح الذي يُريد العَفَاف).[21] ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فليستعفُّوا حتّى يرزُقهم الله ما يكفي لتغطيةِ تكاليفِ زواجِهم أو يُغنيهم بتسخير ما تعسّر لهم من قبلُ تحصيلُه.

وحينَ كان عسرُ الإنفاقِ على العبيدِ لتزويجِهم مانعًا لهم من الحصانةِ؛ وكان وعدُ الله بإغناءِ المتزوّجين متعلّقا باتّخاذِ الأسباب دعا إلى تحريرِهم إذا طلبُوه ليقووا على نفقةِ أنفُسهم ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إن طلب منكم عبيدُكم أن تبيعُوا لهم أنفُسهم الرّهينة بينَ أيديكم ليتحرّرُوا، ومعنى: "يبتغُون الكتاب" يطلبُونَ أن تقع كتابةُ اتّفاقٍ بينكم، والمكاتبةُ: اتّفاق السّيّد مع عبدِه أو أمته على عوضٍ يُؤدّيهِ لمدّةٍ ويكونُ حرًّا بأدائِه، يقُول القُطبُ: "وهم أحرارٌ من

[21] ، ب: ما جاء في المجاهد والنّاكح...، ر: ١٦٥٥، (١٨٤/٤).ﷺ رواه الترمذي، ك: فضائل الجهاد عن رسول الله

حينِهم[وإن كان]عليهم دينٌ لمكاتِبِهم ... كسائرِ المبيعاتِ يملكُها مَن اشتراها مِن حينِ البيعِ"[٢٢] ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فاتّفقُوا معهم على عوضٍ معيّنٍ لأدائه إذا استيقنتُم أنّهم أهل صلاحٍ ليُؤتمنوا وأنّهم أهل قدرةٍ على الكسبِ ليؤدُّوا ما عليهم، واستعملَ ضمير الذّكورِ تغليبًا والمرادُ الإماءُ والعبيدُ معًا، والأمرُ للوجوبِ على الظّاهرِ؛ وقيل: للنّدبِ، وعلى كُلٍّ هو معلّقٌ بحصولِ حُسنِ ظنّ أسيادِهم بهم ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ وأعينُوهم على أداءِ ما فُرض عليهم ممّا تفضّل الله به عليكم من المالِ أو بحطِّ شيءٍ ممّا فُرض عليهم، والأمر هنا ارتقاءٌ في الكرمِ فيكونُ للنّدب؛ ولا بأسَ أن يكونَ أعمّ بمعنى: أنَّ الآية حثّت المالك وغير المالِك كالأغنياء وذوي الولاية على الإنفاقِ، وأضافَ المالَ إليهِ"مال الله" ترغيبًا لهذا الوجهِ من الإنفاقِ الخيريّ؛ فمالكُ المالِ الأصليّ له اشتراطُ وضعه أينَ شاءَ وقد يسلبهُ بالمخالفةِ، وفي تشريعِ هذهِ المكاتبةِ ما دلَّ على سماحةِ الإسلامِ في التّعاملِ مع العبيدِ.

وحين حثَّ على تحصينِ العبيدِ والإماء غير المتزوّجين التفت إلى و اقعٍ كان من آثارِ إهمالِ ذلكم التّحصينِ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ولا تُلزموا إماءكم على التّجارةِ الجنسيّةِ وهنَّ يردن تحصينَ أنفسهنَّ، والبغاء زنى بمقابلٍ مُشترطٍ؛ مأخوذٌ مِن بغى أي طلبَ؛ ويُصاغُ فقط على المفاعلة الدّالّة على المبالغة والتّجدّد لئلاّ يلتبس باصطلاحِ البغيِ الذي يُراد به الاعتداء، والشّرطُ "إن أردن.."في الآيةِ ليس على مدلُوله و إنّما هو لبيانِ فظاعةِ حال مَن أُكرم بجاريةٍ فكان من الأصلِ أن يُعفَّها خدمةً لمقصدِ حبسها عندهُ؛ فكان بالعكسِ يُهينُ كرامتها؛ وفوقَ ذلك يُكرهُها على الزنى وهي تُريدُ العفاف، واختار هنا اسم "فتياتكم" لأنّهُ ألطفُ مناسبةً للرّفقِ بهنَّ ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تُقدمون على ذلك طمعًا في بعضِ المقابلِ المادّيّ الذي هو عرضٌ دُنيويٌّ زائلٌ، وفي هذا زيادةُ تصويرٍ لبشاعةِ ذلك المنكرِ؛ فجرأةُ الإكراهِ وخُبث المقصدِ إلى الكسبِ مع إرادةِ الأمةِ الإحصان عللٌ تمخّض عنها تحريمُ البغاء ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومَن يلزمهنَّ البغاء ويحملهن عليه كُرها بعدَ هذا النّهيِ التّوبيخيّ فإنَّ الله غفورٌ لمعصيتهنّ السّابقةِ والآتيةِ حيثُ وقعت على الإكراهِ؛ رحيمٌ بضعفهنَّ، وفيه تعريضٌ للمُكرهينَ بأنّكم أنتُم الهالكون لا هنَّ، وقيل الآيةُ بمعنى: ما كان مِن إكراههنَّ قبل الإسلامِ أو بعدهُ معفوٌّ عنهُ لمن تابَ فبادرُوا، والآيةُ دليلٌ على العفوِ عنِ المُكرَه، وتنبيهٌ

---

[22] محمد بن يوسف أطفيش، **تيسير التّفسير**، ج١٠، ص١٠٩.

إلى أنَّ حامل النّاسِ على الشّرّ لا يُهلكُ إلاَّ نفسه، ولعلّه لم يشدّد النّكير هنا مقارنةً بالآياتِ التي تُحرّمُ الزّنى لأنَّ البغاء مع حالته النّكراء محدود الأثر لعلمِ النّاسِ به ممّا يُسهّلُ عليهم الاحترازمنهُ والحدَّ منه ومن عو اقبه.

٢٣. بيانُ شأنِ الله العظيم في التّشريع والأحكام

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤) اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾.

بعد أن جاء في مطلع السّورةِ ﴿وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يمتنُّ علينا هنا بما أنزل إلينا من الأحكام والوصايا الجليّةِ لأجلِ هدايتنا ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ و افتتح بالتّوكيدِ"ولقد"

وعبّر بنونِ العظمةِ"أنزلنا" اهتمامًا بالامتنان، وسمّيت جملُ القرآنِ آيات لأنّها تُعجزُ النّاس بما تضمّنته من المعاني والدّلائل من الإتيانِ بمثلها، وهي أيضا تدلُّهم على الله ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وبسطنا لكم عبرًا ودرُوسًا استُخرجت ممّن قبلكم من الأقوامِ الصّالحين والطّالحين، وهنا تقديرُ: مثلاً من أمثالِ الذين، والمثَل اشتباهٌ يُنتزعُ من حالٍ ليُقابل على حالٍ أُخرى لغرضِ استجلاءِ صورةٍ عجيبةٍ ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ ونوّعنا لكم المواعظ التي يعرفُ بها أهلُ التّقوى مواضع الخطأ كالقذفِ فيجتنبُونها ومآخذ الصّوابِ كحفظِ الأعراض وغضّ الأبصارِ فيأخذُونها، وخُصّ المتّقُون بالذّكرِ لأنّهم هم المنتفعون.

ولَمّا كان شأنُ النّاسِ مقابلة الأحكامِ التّشريعيّة بغيرِ الجدِّ وخاصّةً جانب الحدُود العجيبة في حكمتها؛ يبيّنُ الله مقامه الأعظم في هدايةِ الخلقِ لما فيهِ صلاحُهم ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الله وحدهُ المتصرّفُ في هدايةِ كُلّ ما في السّماواتِ والأرضِ بما بسطهُ من دلائلِ هدايتِه العجيبةِ النّاطقةِ بسطوع حجّتها بأنّهُ الواحدُ الكاملُ في حكمتِه وسائرِ صفاته، وفي الآيةِ إيراد المصدر"نور" بدلا من اسمِ الفاعلِ"مُنَوِّر" للمبالغةِ؛، ومن المعلوم القطعيّ أنّ الله ليس جسمًا ولا عرضًا، فتلك استعارةٌ للنّورِ

المادّيّ الضّاربِ في الآفاقِ الكونيّةِ لتقريبِ مفهومِ النّورِ المعنويّ لهدايةِ المخلُوقاتِ، وحاصلُ المعنى يُمكنُ فهمُه مع بسطِ اسمِ الله "النّور" فهو تنزيه الله عن العدمِ و إثباتُ الوجودِ له إثباتًا كاملاً كما يثبُت النّور في الظّلامِ مستغرقًا أجزاءهُ؛ ولازمُ ذلك الكمالِ أنّه تفرّدَ بمقاليدِ الأحكامِ الدّستُوريّة التي تضمنُ نظام الكون.

ثمّ يُشبّهُ مجازًا نوره الأسمى بهيئةٍ معروفةٍ أدنى لحصولِ الصّورةِ التي يفهمها النّاس ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ مثلُ نورِالله الهدائيّ كمشكاةٍ استقرَّفيها مصباحٌ ليُنتفع به في إضاءةِ ما حوله، فصفاءُ تلك المشكاةِ واستيعابُها للضّوءِ وإرسالُها له إلى أنحاءِ الحيّزِالذي جُعلت فيه تقريبٌ لنورهدايةِ الله في قلبِ المؤمن، والمشكاةُ وعاءٌ يُتّخذُ على الجدار دون أن يخترق الجدار إلى جهة أخرى، للإنارةِ الدّاخليّة، فإذا اخترقه سمّيَ كوّةً أونافذةً، والمصباحُ إناءُ الزّيتِ؛ اسمُ آلةٍ كمفتاحٍ مأخوذٌ من الصّبح لابتداءِ الضّوء فيه ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ ذلك المصباحُ قد توسّطَ زُجاجةً ناصعةً تفرزُالضّوء الصّافي فتبعثُه على هيئةٍ واحدةٍ، وصفاءُ الزّجاجةِ تقريبٌ لنصوعِ حججِ الإسلامِ ومسالِكه، وكرّر هاتينِ الكلمتينِ فلم يقل: مصباحٌ في زجاجةٍ كأنّها؛ اهتمامًا بأركانِ هذا التّمثيلِ حتّى وكأنّهُ تلخّصَ فيهما ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ والنّاظرُإلى المصباحِ في الزّجاجة يتخيّلُه وكأنّهُ كوكبٌ دُرّيٌ، والدُّرّيُ جمعُ الدّراري وهي صنفُ الكواكبِ السّاطعة كالزّهرة والمشتري؛ سمّيَ بذلك نسبةً إلى الدّرّلهيئته النّاصعةِ التي تشعُّ بياضًا، وهذا تشبيهٌ ضمن تشبيهٍ يدلُّ على إمعانٍ في تحسينِ رسمِ تلك الصّورةِ ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ ونور ذلكم المصباح الذي في الزّجاجة ينشأُ من أصلٍ صافٍ؛ وفي الآيةِ تقديرُ مضافٍ أي: من زيت شجرةٍ هي شجرةُ الزّيتُون ذات المنافع الكثيرةِ، وذكرُالإيقاد ثمَّ الشّجرةِ مع التّنبيهِ إلى بركةِ ثمرِها تقريبٌ لصورةِ قيام أهلِ الدّينِ لإحيائه وتعهّدِهِ مع صورةِ اجتهادهم في استخراجِ أنوارِه المباركة وبثّها ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ وذلك الزّيتُ مستخلصٌ من أجودِ أشجار الزّيتُون المغرُوسة في أجواءٍ معتدلةٍ ومناخٍ حسنٍ، ونفيُ كونها شرقيّةً أوغربيّةً كنايةٌ عن ذلك؛ لأنَّ في الوسطِ الذي يعتدلُ فيهِ توزّعُ أشعّةِ الشّمسِ جودة لا تحرزها زيت الأشجار المغروسة في الأطراف، وذكرُ هذا الاعتدال تقريبٌ لسماحةِ الإسلامِ ووسطيته ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أوشك زيتُه أن يُضيء لشدّةِ صفائه ونقاوته من غيرِأن تُصيبه نارٌيحترق بها ليُضيء؛ وهذه مبالغةٌ في وصفِ الصّفاءِ، وهي صورةٌ

تقريبيّةٌ بأنَّ براهين الحقّ عند المؤمنِ تكادُ تنطقُ بذاتها لشدّةِ وضوحها كيف وقد نزل القرآن يذكيها ويبعثُها بآياته الواضحات ﴿نُورٌعَلَى نُورٍ﴾ من تلك الأنوارِ المركّبِ بعضُها على بعضٍ قد أُرسل نورٌبعضُه يتبعُ بعضًا، وهنا تقديرُ مبتدأ أي ذلك نورٌعلى نورٍ، نور الزّيتِ بالإحراقِ ونورُه بصفاءِ الزّجاجة تلك التي تلألأت بأشعّةِ المصباح قد أُرسلَ نورًا على نورٍ؛ و"على" للدّلالةِ على ترادفِ ذلك النّورِعلى بعضِه بلا غايةٍ، والتّنكيرُ في الكلمتينِ للتّفخيم، وكلُّ ذلك تشبيهٌ تمثيليٌّ على طريقِ التّفنّنِ والمبالغةِ لتصويرِ نورِاللهِ إذا استقرَّفي قلبِ المؤمن يُبيّن به سرّإقباله على شرعِ الله القويم بالهدايةِ المقذوفةِ في قلبه.

وبعدَ أن بيّن مقام المؤمن الرّفيعِ المهتدي بنورِالله بيّن سنّته في الهدايةِ إلى ذلك النّورِ جوابًا لما يُتحيّرُفيه من ضلالِ كثيرٍ من النّاسِ عمّا هُدي إليهِ المؤمن ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يرشدُ الله إلى نورِه من شاء إرشادهُ، ومشيئتُه تعلّقت بسنّته المعلُومةِ في هدايةِ المقبل إليه في الفرصِ التي أتيحت له، ويجوزُتأويلُ "نورِه" بالقرآنِ لأنّه دستُورالهدايةِ ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ومن شأنِه تعالى أنّهُ يُبيّنُ المواعظ والحِكم للنّاسِ كي ينتفعُوا بها؛ كما صوّر قبلاً نورًا محسوسًا لبيانِ نورٍ معنويّ، والمضارعُ"يضرب" لإفادةِ التّجدّد في البيانِ الذي يدلُّ على رحمته ورِفْقِه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والله عالمٌ بكلّ أحوالِ عباده؛ وسيُدخل طالب الهدايةِ في نورِه؛ وسيُجازي المعرض بنارِه.

٢٤. ذكرُالمساجِد ومقام المؤمنين مقابلةً بحضيض الكفّارِفي الضّلال

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِاللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ(٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِحِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْكَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍلُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠)﴾.

وبعدَ أن نوّهَ الله بشأنِ المؤمنِ من خلالِ مثالِ نورِه كان من المناسبِ أن يُشير إلى مكانِ استمدادِ ذلكم النّوروهو المساجد جوابًا لمن قد يسأل: أين يُمكنُ أن يُرى؟ مع ما في ذكرِ المساجِد من اهتمامٍ

بشأنِها في تحسين الحياةِ الاجتماعيّة التي قد اهتمّت السّورة بها ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أراد الله بحكمتِه أن تُشيّدَ في أرضه مساجد تكونُ منارةً لعبادته يعلُو فيها ذِكرُه بالدّعوة إليه، فرفعها شمل الرّفع الحسّيّ ثمَّ المعنويّ،[23] وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، تقديره: يُسبّحُ لله رجالٌ في بيُوتٍ أذنَ أن تُرفع؛ وقُدّمَ ذكرُ البيوتِ اهتمامًا بشأنها؛ وكرّر "في" زيادةً في الاهتمام، وإذنُ الله برفعها دلَّ على تفضّلٍ منهُ وكأنَّ وضع النّاسِ في الظّلماتِ استغاثه فأذنَ له برفعِ المساجد لتكون أشرف البقاع بما تمدُّ به من نورٍ، والآيةُ تضمّنت حثًّا على بناءِ المساجِد كما تضمّنت الحكمة من بنائها، وفيها إشارة إلى أن المساجد لا يباح فيها إلا ما أذن الله تعالى به ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾ يتضرّعُ لله في بيوتِه رجالٌ بالصّلاةِ والذّكرِ والتّلاوةِ وغيرها من العبادات، وقدّمَ "له" إشارةً إلى إخلاصهم العبادة لله وحدهُ، والغدوّ على المشهورِ أوّل اليوم والأصيلُ آخرُه، ولعلّهُ ذكر الوقتينِ مجازًا لشرف العبادةِ فيهما والمرادُ: لا تزالُ المساجدُ عامرةً بهم متى رأوا ضرُورة ذلك فيجتمعون للصّلوات الخمسِ وللقضايا الدّينيّة ويجتمعُون لمصالِحهم الاجتماعيّة والسّياسيّة وغيرِها، ثمَّ يمدحُ أولئك الرّجال في توفيقِهم بين العبادةِ والكسبِ المشروع: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لا تُشغلُهم تجارةٌ ولا بيعٌ عمّا فرض الله عليهم، وذكر جانب التّعاملاتِ المادّيةِ لظهورِ أثرِه والمرادُ: لا يُلهيهم أمرٌ دنيويٌّ البتّة، وذكر التّجارة لتشمل كلّ أنواعِ المؤسّساتِ والهياكل الرّبحيّة وذكر البيع ليشمل عموم التّبادلات النّفعيّة؛ على طريقِ التّعميم بعد التّخصيص، أو أرادَ بالتّجارةِ الشّراء فصارَ بينَ اللّفظينِ طباقٌ، والمقام مقام مدحٍ لبراعةِ توفيقهم في تحصيلِ ما يُزكّيهم رُوحيًّا وما يُنمّيهم مادّيًّا؛ فلا يصلُح -كما ذهب بعضٌ- أن يمدحُوا بأنّه ليست لهم تجارةٌ أصلاً لتُلهيهم ﴿وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ ولا تُشغلُهم الأعمال الدّنيويّة عن أداءِ الصّلاةِ كما فرضت، وأداء الزّكاة كيفما وجبت؛ فيهتمّون بإخراجها حسبَ شرُوطها لمن يستحقُّها لا تُلهيهم المشاغلُ عن ذلك، والعبادتان من ذكرِ الله ولكن خصَّهما بعد العموم اهتمامًا بشأنهما، والظّاهرُ أنّه ذكر الصّلاة مجازًا عن الأعمال التّعبّديّة والزّكاة مجازًا عن سائرِ الطّاعات التي لم تنحصر في المساجد ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ كان تشمّرُهم لأداءِ ما افتُرض عليهم لأنّهم يخشونَ يوم الفزعِ الذي تضطرب فيهِ أحوالُهم الباطنيّة والظّاهريّة من شدّةِ هوله مترقّبين ماذا

---

[23] وفي هذا المجال تندرجُ آداب المسجد الكثيرة التي أوردتها السّنة وتسابق العلماء في بيانها.

سيُفعلُ بهم، وذكر القلوب والأبصار علامةً على الحالين، وفي "تتقلّبُ والقلوب" جناسُ اشتقاقٍ، وخوفهم هذا قابلهُ بطمأنتهم وتبشيرهم: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يبعثُهم الله يوم القيامة ليجزيهم جزاءً بالنّظرِ إلى أحسنِ أعمالِهم؛ أي يُكافئهم على صلاتِهم مثلاً لحرصهم عليها بأحسنِ وجهٍ أدّوها عليهِ غافرًا ما قد يطرأُ عليها من تقصيرٍ، أو "أحسن" مسلوب المفاضلة بمعنى: يجزيهم على أعمالهم الحسنة ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويزيدُهم من ثوابِه بمضاعفةِ حسناتِهم تفضّلاً منه، وفي الآيةِ إشارةٌ لطيفةٌ بأنّ أهل المساجد أفضل رُتبًا من غيرهم ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ والله يُعطي من خزائنِ رزقه من يشاءُ من عبادِه عطاءً شاملاً بلا عدٍّ ولا حدٍّ؛ وفي "بغيرِ حساب" كنايةٌ عن ذلك فإنّ الموسّع في العطاءِ لا يكاد يهتمُّ بحسابِ ما يُقدِّم، وأظهر لفظَ الجلالةِ إمعانًا في بيانِ أنّه الممتنّ والمتفضّل.

وبعد عرضِ أحوالِ أهلِ الإيمانِ يصوّرُ تمثيلاً لأهلِ الكفرِ من زاويةِ أعمالِهم ثمّ عقائدِهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ والذين كفرُوا بالله مثلُ أعمالِهم عند الله كمثلِ سرابٍ بقيعةٍ، والافتتاحُ بهذا النّحوِ من ذكرِ الاسمِ الموصول مع صلتِه تشويقٌ لما سيُخبرُ عنه، والمرادُ بأعمالِهم هنا ما يرونه حسنًا ولم يجعلُوهُ لله كالذّبح للقرابين وإكرام الضّيف، والسّراب من سَرْبِ الماء أي جريانِه؛ وهو ما يظهرُ وسطَ الطّريقِ في الحرِّ كأنّهُ ماءٌ يتحرّكُ وليس هو ماء حقيقةً، وباءُ "بقيعةٍ" بمعنى: "في"، والقيعةُ كالقاعة متّسعٌ منبسطٌ من الأرضِ أو بمعنى: القاعِ فهي منبسطةٌ سافلةٌ ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ يظنُّ العطشانُ أنّ ذلك ماءٌ يتحرّكُ، والرّيّان أيضًا يشتركُ في ذلك الحسبانِ وخصّ الظّمآن لأنّهُ فيه أشدّ، وهنا تقريبٌ لحالة الكافرِ بأنّه يتطلّعُ إلى ثمرة عمله تطلّع العطشانِ إلى الماء ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ حتّى إذا قصدَه لم يجدهُ ماءً فتحسّر وتضجّر، وذلك لأنّهُ لايزالُ يرى السّراب كلّما تقدّم فحصلَ بوصولِه إليهِ تحسّرًا على عدمِ الإيجادِ وضجرًا على انخداعه بتكرّرِ رُؤيتِه مرّةً أُخرى، ولم يقل: لم يجدهُ ماءً؛ مبالغةً في أنّهُ لم يجد شيئًا فضلاً عن الماء[24] ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ لم يجد شيئًا عندَ السّرابِ ليُنقذهُ وبالمقابل وجدَ من يترصّدُهُ بالإهلاكِ وفي ذلك غايةُ التّحسّر والأسف، وكلُّ هذا تمثيلٌ لحالِ الميّتِ على الكفرِ مع ما عمل من أعمالٍ ظنّها تنفعُه لكن لم يجدها إلاّ

[24] هذا وإن أثبت الدّارسون بأنَّ السراب موجودٌ ومرئيٌّ حقيقةً وليس سحرا للعينين غير أنّه لا يظهر للقريب.

هباءً منثورًا؛ ووجدَ الله بالمرصادِ مهيّئا له حسابه العسير وجزاءهُ الأليم، ويحسُن تقديرُ مضافٍ هنا أي: ووجدَ قدرَ الله بالإهلاك، والآية من أدلة تنزيه الله، وعدم إمرار الآيات التي ظاهرها تشبيه الله بخلقه على ظاهرها، لأن المشابهة مظهر من مظاهر النقص، وبيان ذلك: أن الله قال"ووجد الله" وهو في الحقيقة لا يجد الله و إنما يجد قَدَر الله ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ واللهُ جديرٌ بحسابِ الخلقِ جميعًا لا يُعجزُه عددٌ ولا يطولُ عليهِ فيه زمنٌ.

وبعدَ مثالٍ في البَرّ يضربُ مثالاً بالبحرِ تنويعًا؛ فمثلُ ابتعادِهم في الضّلالِ العقديّ ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ مثلُهم كمثلِ مقتحمٍ بحرًا ليبلغَ غايةً فإذا هو في ظُلماتٍ متراكمةٍ في بحرٍ عميقٍ جدًّا، والجمعُ في ظُلماتٍ كنايةٌ عن شدّةِ الظّلمة، و"لُجّيّ" من اللّجّة وهي عُمق الماء؛ وفي القرآن ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النّمل ٤٤] والنّسب"لُجيّ" مستعملٌ في التّمكّنِ من الوصفِ ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ وفوق عمقِ البحرِ المظلمِ أمواجٌ يركبُ بعضُها بعضًا ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ ومن فوقِ البحرِ سحابٌ كثيفٌ عمل على حجبِ النّورِ عن عمقِ البحرِ ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلامٌ بسببِ العمقِ وظلامٌ بسببِ الأمواجِ وظلامٌ بسببِ مظلّةِ السّحابِ فهي ظُلماتٌ بعضُها على بعضٍ غطّت ذلك الغارق في البحرِ ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ إلى درجةِ أنّه إذا رفع يده كي ينظُر إليها لم يستطع رُؤيتها من شدة الظلمة، وإخبار الرّسول ﷺ بهذهِ الحقيقةِ يعدّ إعجازًا بحقٍّ لأنّه لم يعاشر البحر ليعرفها؛ ولا شكَّ أن مبدع البحارِ هو من أخبرهُ بذلك، ومن ناحية أخرى فإن الإنسان لم يكتشف الأمواج الداخليه للبحر إلا في العصور المتأخرة بفضل الدراسات العلمية، بينما هذا الرسول الأمي يخبر عن ذلك قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، أولا يكفي ذلك دلالة على أن القرآن الكريم من عند الله؟!

وعبّر بالإخراجِ مبالغةً في وصفِ الظّلمةِ وكأنّ يدهُ التي بجنبِه قد لُفّت بالظّلامِ فاحتاجت إلى إخراجٍ، ومعنى "لم يكد" نفيُ كونه اقترب من رُؤيتها فضلاً عن تحقّقِ الرّؤيةِ، والمرادُ إذا كان لم يدرك أقرب شيءٍ إليه فكيفَ يطمعُ في النّجاة؟! وخُلاصةً لهذا التّمثيلِ يقُول: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ والذي حرمه الله من نورِ هدايته فليس لهُ في الدّنيا غير الله هاديًا كما ليس لهُ غيره في الآخرةِ ناصرًا، وهذا تمثيلٌ لشدّةِ ظلمةِ الكافرِ مقابلةً بنورِ المؤمنِ الذي كان نورًا على نور، وهو تصحيحٌ

لمفاهيمِ المسلمين الأوائلِ ونحنُ بالتّبع لئلاَّ نغترّبحياةِ الكفّارِالتي ما هي إلاّ جريٌ وراءَ سرابٍ وتخبّطٌ في الظّلماتِ.

٢٥. بسطُ عجائبِ الله الدّالة على أنّهُ أهل التّشريعِ والهداية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾.

ثمّ يذكُر الله دلائل توحيدِه ليُبيّن أنّ من ملك كلَّ شيءٍ وهدَاهُ سبيلهُ أولى بأن يُعتصم بنورِه وتُرتجى منه الهداية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ألم تعلم أنّ الله يُسبّحُ بعظمته كلُّ مخلوقٍ في السّماواتِ والأرض، والاستفهامُ تقريرٌ للواقع وإن لم يفقهه البشر، والخطابُ لكلّ من يصلُح له، والرُّؤية علميّةٌ؛ أي: ألم تعلم، وقد تُفسّرُ بالبصريّةِ، و"مَن" شملت العقلاء وغيرَهم،إلا أن تسبيح العقلاء أظهرُ من تسبيح غيرهم، وقدّم "لهُ" لإفادةِ أنّ تسبيحهُم كان لله وحدهُ، وتسبيحُ المخلُوقاتِ خضُوعها للنّظامِ الذي جُعلت فيهِ لتبعث على تعظيمِ الله إذا أُبصرت عظمةُ الله فيها وقد يكون تسبيحها حقيقيا بأصوات وذبذبات، وقد اكتشف بعض العلماء ذلك، ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ وتُسبّحُ له الطّيور وهي تطيرُ في صفوفٍ منتظمةٍ، وهذا مظهرٌ يقعُ بين السّماء والأرضِ؛ فكأنّهُ قال: السّماوات والأرض وما بينهما فأبدعَ بذكرِ أبرزِ المظاهرِ وهي تحليقُ الطّيرِ ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ كلُّ مخلوقٍ من الإنسِ والجنّ والملائكةِ والحيوان والنّباتِ وعامّةِ الموجودات قد أُرشد إلى طريقة دُعائه وتسبيحه، وفصّل هنا إشارةً إلى جانبِ التّضرّع بالدّعاء وإلى جانبِ النّظام الحياتيّ بالتّسبيح، والمكلّفُون وإن انحرفُوا ظاهريًّا إلا أنّ أعضاءهم تُسبّحُ بحمدِ الله مطيعةً أمرهُ فيهم، أو ضميرُ"علم" يرجعُ لله فهو يعلمُ مَن خلقَ وما هم عليه من صلاة أو تسبيح أو غير ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا

يَفْعَلُونَ﴾ والله يعلمُ ما يفعلُونه جميعًا لا يخفى عليهِ من أمرِهم شيءٌ ولا يخرُج أحدٌ منهم من قبضته ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والله مالكٌ للسّماواتِ والأرض وما فيهنَّ بيدهِ ناصيةُ الخلقِ كلّهم وهو الغالبُ على أمرِهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وإليهِ وحدهُ مرجعُ الخلقِ للحسابِ والجزاء، وتضمّن هذا وعيدًا للكفّارِ الذين لم يخضعُوا للملكِ الجبّارِ ولم يُسبّحُوا بحمدِه شأنَ عامّةِ المخلُوقاتِ المسبّحةِ.

ثمّ يذكُر مظهرًا بديعًا من المخلُوقاتِ المسبّحةِ بحمدِ الله والتي يظهرُ من آثارِ تسبيحِها إكرامُ الإنسانِ الذي لم يزل مُكابرًا خارجًا عن النّسقِ الكونيّ المتّحد ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ ألم تر بأنّ الله هو من يسُوق السّحاب إلى حيثُ شاء بعد أن تصاعدَ بُخاراً من البحار؟ والرّؤيةُ تحتملُ العلم أو الإبصار، والخطابُ لغيرِ محدّدٍ، والاستفهامُ تقريريٌّ،لتقرير هذه الحقيقة، و"يُزجي" من الإزجاء وهو سوقُ الشّيءِ ودفعُه برفقٍ ومنهُ: "بضاعةٌ مزجاةٌ" ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ ثمَّ يضمُّ شتاتَ السّحابِ بعضهُ إلى بعضٍ، وفي تفصيلِ مراحلِ التّصنيعِ حثٌّ على تعظيمِ الصّانعِ؛ والتّعبيرُ بـ"ثمّ" تنويهٌ إلى المدّةِ التي تحكي عجيبَ الحكمةِ في الإنشاءِ المتأنّي؛ وبديعَ القدرةِ في التّعهّدِ والمداومة ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ ثمَّ يجعلُ السّحاب طبقاتٍ بعضُها فوق بعضٍ بأن يرفع السّافل إلى العالي ويحدَّ العالي ليجتمع معه السّافل، و"رُكامًا" بمعنى: مركوم من التّراكم وهو جمعُ الشّيءِ على بعضه ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ ومن السّحابِ المركوم تُشاهدُ الماء الخفيف ينزلُ قطراتٍ، والودقُ عموم الغيثِ، وخِلال جمعُ خَلَلٍ كجملٍ وجِمالٍ وهي الفُتوح والفُتوق، واستعمالُ فعل الرّؤيةِ مع فاءِ التّعقيب تنبيهٌ إلى حالةٍ عجيبةٍ حاصلة غير بعيدة عن زمان تراكُم السّحبِ؛ وهي اللّحظة التي تشرئبُّ فيها الأعناق تتطلّعُ ابتداء الغيثِ، اهتمَّ القرآنُ بتسجيلِها بطريقةٍ جميلةٍ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ كما يُنزّلُ بَرَدًا من السّحابِ العظيمِ الذي بلغ حجم الجبالِ، وقولُه: "من السّماء" بعد ذكرِ الإنزالِ تخييلٌ لصورةِ الإنزالِ بأنّه كان لطيفًا ولو شاء لأنزله جبالاً، وفُسّر "جبالاً" بأنّه كنايةٌ عن الكثرةِ؛ كما يُقال: فلانٌ له جبالٌ من متاعٍ كذَا، و"فيها" أي جبالٌ كائنةٌ في السّماء، و"من" الأولى والثّانية لبيانِ الابتداءِ وأمّا الثّالثة فصلةٌ للتّأكيد ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيُصيبُ بالبَرَدِ من شاء من النّاسِ فيتساقط على زُروعهم ودوابّهم وأنفُسهم، وإطلاقُ الإصابةِ شائعٌ فيما هو مكرُوهٌ؛ ومناسبةُ ذكرِ هذا في سياقِ الامتنانِ هو التّنويه إلى المنة الخاصلة بصرفِ ذلكم المكرُوه ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ ويُبعدُ البَرَدَ عمّن شاءَ فلا يُصيبُه،

والمشيئةُ تعلّقت هنا بحكمتِه فقد يطولُ الامتنانُ وقد يطولُ الضّرُّوقد تتقاربُ أحوالُهما ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ يكادُ ضوءُ برقِ السّحبِ الكثيفةِ يأخُذ أبصارَمن يحدّقُ نحو السّحاب، والسّنا بلا همزةٍ الضّوءُ واللّمعان، وأشار إلى هذا دفعًا لاستحضارِ تلك الآيات العجيبةِ من خلالِ تذكّرِ ما شأنُه أن يلفتَ الأنظار؛ فإنّ المتعوّد على نزولِ المطرِ لا يزالُ البرقُ يأخذُ بلبابِ عقلِه يدعُوه إلى التّأمّلِ فيه ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ والله جعل اللّيل والنّهار مختلفينِ طولاً وقصرًا بينَ الشّتاءِ والصّيفِ ومتعاقبينِ بإيلاجِ أحدِهما في الآخرِيومًا بعدَ يومٍ، وجاء بالمضارعِ تصويرًا لذلك التّجدّد، وعبّربالتّقليبِ على سبيلِ الاستعارةِ اللّطيفةِ لتقليبِ شيءٍ مادّيٍّ، ولعلَّ المراد من ذكرِهذا هنا التّنويهُ بأنّ كلَّ تلك الأحوال مناطٌ لجريانِ التّقلّبات المناخيّة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وفي نزولِ الودقِ والبَرَدِ دروسٌ للمتأمّلين يعرفُون من خلالها قدرةَ المنعم المتفضّل، وخصّهم بالذّكرِإشادةً بهم فهم المنتفعون بالعبر، والقرآنُ كلُّه التزمَ ذكر"عبرة" بالإفرادِ والتّنكيرِ؛ لعلّ وراءَ ذلك بيان أنّ عبرهُ متّحدةٌ في أغراضِها غيرُمحدودةٍ في أوصافِها، و"الأبصار" تكرّرت في هذه الآيات مرّتينِ، مرة بمنى البصربالعين، ومرة بمعنى إبصارالقلب والعقل لمعنيينِ، فحصل بذلك جناسٌ تامٌّ رقَّ به الكلامُ وحَسُن.

وبمناسبة بسطِ آية إنزالِ الماء يعطفُ إلى آيةِ الخلقِ من ماءٍ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ والله أخرج كُلّ حيوانٍ يدبّ على الأرضِ أو ما في حُكمها كسُطوح الجبالِ وقاعِ البحارِأخرجه من أصلٍ واحدٍ هو الماء، فهويحتل المكانة الأولى في مادة الخلق لكل ما على الأرض، والظّاهرُأنّ المراد به ماءُ التّناسُلِ؛ فالحُكم باعتبارِالمجموعِ لا الأفراد؛ فلا يعارضُه خلقُ نبيٍّ أو إخراجُ حيوان شذوذًا على غيرِهذا الأصل، واختار اسم "دابّة" توطئةً لذكرِ اختلافِ الدّبيبِ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ فمن الحيوانات ما يزحفُ على بطنِه كالأفعى ومنها ما يسيرُمعتمدًا على رجلينِ كالإنسانِ والطّيّورومنها ما يمشي على أربعةِ قوائم كالأنعام، وأطنب في الكلامِ إمعانًا في استحضارِتلك الأنواع، وبدأَ بما هو أظهرُفي القدرة وهو المشيُ بغيرِآلةٍ ثمَّ القيامُ على رجلينِ ثمَّ على أربعٍ، وثمّة أقسامٌ بغيرِما ذُكرمن الأرجل لم تُذكرلقلّتِها ولأنّها تندرجُ في: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يُبدعُ الله من أنواعِ المخلُوقاتِ كيفما شاء إبداعًا لا يُضاهيه إبداعٌ ولا يُرى فيه خللٌ ولا نقصانٌ، وذكر الخلق الأول بالماضي تنويهًا بقدرةِ الإيجاد ثمّ جاءَ بالمضارعِ إشارةً إلى قدرته في الاستمرارِوالتّجدّد، والتزم

بإظهار لفظِ الجلالةِ إثباتًا لاسم المبدع الأعظم في الأذهان ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإنّ الله صاحب القدرةِ المطلقة لخلقِ ما لا تعلمون، وما تلكم الأقسامُ إلاَّ أنواعٌ عامّةٌ ففي كلٍّ منها خِلقةٌ مختلفةٌ حجمًا ولونًا وكسوةً تفرّعت عنها هيئاتٌ كثيرةٌ من المشي لا تُحصى من حيثُ كيفيّةُ بدايته ووقتُها ثمّ سرعة المشي ومدّته الزّمنيّة ومكانه البيئيّ الملائم وغيرُ ذلك.

وبعد عرض هذهِ الآياتِ المليئة رُوحًا و إيمانًا يذكّرُ بأنّ ذلكم المبدع هو نفسُه منزلُ الآياتِ القرآنيّة دعوةً للإقبال عليها ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ ولقد أنزلنا إليكم آياتٍ فيها إيضاحُ طريقكم إلى الهدى فتمسّكوا بها، أو الآياتُ هنا الآياتُ الكونيّة و إنزالُها إيجادُها؛ يُشيرُ بأنّ مَن لم يُؤمن بها فالله لا يهديه لأنّهُ لم يجعل هدايةً إلاَّ من خلالها ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والله هو الذي يهدي من أراد هدايته إلى سبيلِه القويم الموصل إلى رضوانِه.

٢٦. ذمُّ المنافقين على المخالفةِ ومدحُ المؤمنين على الطّاعة

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾.

وفي خضمّ الدّعوةِ إلى الإيمانِ وبسطِ دلائلِ التّوحيد يتعرّضُ إلى الحديثِ عن المنافقينَ لاستيعابِ أحوالِ النّاسِ مع الدّعوة ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ ومن شأنهم أنّهم يدّعُون الإيمان بالله تعالى ورسُوله ﷺ ويدّعون أنّهم مطيعُون لأوامرِه مجتنبُون لنواهيه، وعودُ الضّميرِ في "يقولون" إلى غيرِ مذكورٍ كثيرٌ في القرآنِ إذا عُلم من سابقِ السّياقِ أو كان له من دلالة المقام شاهدٌ، وعبّر

بالمضارع"يقولون" لإفادة أنّهم كرّرُوا ذلك وأصرُّوا عليه ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ لكن إذا طُلبُوا لمقتضى قولِهم: "آمنّا وأطعنا" أعرضَت جماعةٌ منهم بعد إعلانهم السّمع والطّاعة، واستعمل إشارةَ البعيدِ"ذلك" للقريبِ إعظامًا لأمرِ مخالفةِ القولِ للعملِ ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس أولئكَ بمؤمنينَ حقيقةً لأنّه لم يكن لهم من الإيمانِ إلاَّ حظُّ القولِ.

وبيّنَ تولّيهم المُريب وعدم إيمانهم بقولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ وإذا ناداهم المؤمنون إلى الاحتكامِ إلى كتابِ الله وسنّةِ رسُوله ﷺ ليقضي الرّسُول في شُؤونهم التي اختلفُوا فيها بينهم، وذكر الدّعوة إلى الله لزيادةِ الحثِّ على الاحتكامِ إلى الرّسُول ﷺ ما دام أنّه يصدر عن الله؛ والأحسنُ عودُ ضمير "يحكُم" إلى الرّسُول لأنَّ حُكمه حُكم الله وهو أقربُ مذكورٍ ولئلاّ يسمّى الله والرّسُول بضميرٍ واحدٍ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ رأيتَ جماعةً منهم يبتعدُون عن الاحتكامِ إلى رسُوله، لعلمهم أنَّهم إذا كانوا مُبطلينَ فحُكمه ﷺ فصلٌ لا يميلُ إليهم أو شكُّوا أنَّ الحُكم سيكون ضدّهم فيحترزون بالإعراض، واستعمل "إذا" الدّالة على المفاجأةِ لتقرير أنّهم لا يتريّثون في الإعراض بعد الدّعوةِ إلى الاحتكام ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ وإذا كان أمرُ الاحتكامِ متعلّقًا بحقٍّ يعُود إليهم بادرُوا إلى طلبِ الاحتكامِ لاستردادِ ما فاتهم لعلمِهم بأنَّ الرّسُول ﷺ يضمنُ حقّهم، وعبّر بـ"إن" الشّكّيّة تنويهًا بأنَّ الحقَّ غالبًا لا يكونُ لهم فَهُم أهلُ باطلٍ، و"إليهِ" عائدٌ إلى الرّسُول ﷺ أو الحقّ، والإذعانُ الخضوع؛ ووجههُ أنّهم ستطمئنُّ قلوبُهم مادام الحقُّ لهم ولا يتصنّعُون مكابرةً لجلبِه ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أحينَ يفرُّون عن حُكم الرّسُول ولا يأتُون إلاَّ لحقٍّ لهم؛ قد أصيبت قلُوبهم بمرضِ النّفاقِ؟ والمرض استُعير لفسادِ القلبِ بشيءٍ معنويٍّ هو الكفر الباطن، وبدأَ بالنّفاقِ لأنّه الأخطر، وعبّر عنه بالجملة الاسميّة لإفادةِ الثّبوت؛ ثمّ زادَ: ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ أم شكّوا في صلاحيّةِ حُكم الرّسُول؟ وقيل: أم شكُّوا في نبوّته ﷺ والإسلام؟ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أم حينَ يفرُّون من حُكم الله ورسُولِه يتوقّعُون ظلمًا من جهتِهما؟ والحيفُ الجورُ والاعتداء، والاستفهامات الثّلاثة للمبالغة في ذمّهم والتّعجيبِ من حالِهم مع ما تضمّنته من الإقرار وكأنّه قال: بل في قُلوبهم مرضٌ وشكُّوا في حُكم الرّسُول ﷺ وتوقّعُوا الظّلم منه، وذكر الله والرّسُول إشارةً إلى أنّ شكّهم في الرّسُول كان بسبب شكّهم في الله ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وفي الحقيقةِ أولئكَ هم الذين يحيفُون على شرعِ

الله؛ والله ورسُوله ﷺ منزّهان عن الحيفِ، وعبّر بصيغةِ القصرِ "هم الظالمون" مبالغةً وكأنّهُ ليس ثمّةَ ظالمٌ غيرهُم وهم الكاملون في الظّلم.

وعلى عادةِ القرآنِ في إتباعِ التّرهيبِ بالتّرغيبِ أو العكس يُبيّنُ الأصل الذي ينبغي أن يكون عليهِ أهلُ الإيمانِ إذا طلبُوا للاحتكامِ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ لا يكونُ شأنُ المؤمنينَ إذا نودوا إلى الاحتكامِ بشرعِ الله ورسُوله في أمورِهم الدّينيّةِ أو الدّنيويّة، ووظّف أسلوب الحصرِ مع تقديمه للخبرِ "قولَ" اهتمامًا بقولِ المؤمنين الصّادق مقابلةً لقولِ المنافقين السّالف ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ إلاّ أن يقولوا سمعنا دعوتكم إلى الاحتكام واستجبنا لها، فنفوا بالسّماعِ أنّهم كرِهُوا ما دُعوا إليهِ و أثبتُوا إقبالَهم إلى الاحتكامِ بإعلانِ الطّاعة، ولفظا (السّمع والطّاعة) جَرَيَا مجرى المثلِ في تصويرِ الاستجابةِ الحقيقيّة، وليس المرادُ هنا حقيقة الإخبارِ بل أتبعَ التّوبيخ السّابقَ توبيخًا آخر بأنّهُ لو كانَ أولئك مؤمنين حقًّا لكانوا على هذا الوصف ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ومن يلتزم الاحتكام إلى شرعِ الله ورسُوله فأولئك هم أهلُ الفلاحِ الحقيقيّون، واستعمل إشارةَ البعيد تفخيمًا لشأنِهم ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ والذي يطيعُ الله ورسُوله بالتزامِ جميعِ الأوامر أيًّا كانت ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ ويخافُ مقامَ الله خوف إجلال، ويتّقي عذابه بتجنّبِ كلِّ ما حرّمه مهما كان، وعبّر بالمضارع في الأفعالِ الثّلاثةِ لإفادةِ شرطِ الدّوام على ذلك ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فالجامعُون لتلك الخصال هم أهلُ الفوزِ الحقيقيّون، وأوردَ صيغتينِ لمدحِ أهلِ الإيمانِ بالفلاحِ ثمّ الفوزِ في تعبيرٍ تضمّن إطنابًا تقريرًا وتأكيدًا لفلاحهم وفوزِهم بعدَ أن ذمّ أهل النّفاق.

وهذه الآية تقرر قانون النجاة من عذاب الله، و أنه لا يكون إلا بطاعة الله ورسوله والخوف من الله ومر اقبته

ولَمّا كان المنافقُون لا يقبلُون بتلك المذمّةِ العظيمة أقبلُوا إلى الرّسُول ﷺ يُعلنُون له بأنّهم معهُ وهم مستعدُّون لأمرٍ أعظم من الاحتكامِ ﴿وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ حلفَ المنافقون بالله حلفًا مغلّظًا: والله إذا أمرتنا أيّها الرسُول بالخرُوج إلى الدّعوةِ إلى الله والجهادِ في سبيله لنخرجنّ طاعةً لك، وحكى قسمهم بالغائبِ "أقسموا" احتقارًا لهُ، والجَهْدُ منتهى الطّاقة، والآيةُ بتقديرِ: جاهدينَ أنفُسهم في الأيمان؛ أي كرّرُوها حتّى أتعبُوا أنفُسهم بالتّكرير ليُوهموا بأنّهم

صادقُون، وهذا بطريقِ الاستعارة لحالِهم بحالِ المجهدِ نفسه بعملٍ شاقٍّ عليهِ ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ قل لهم أيّها الرّسُول ﷺ لا تحلفُوا بالأيمانِ الكاذبةِ على الطّاعةِ، والنّهيُ صالحٌ لبيانِ طلبِ الكفِّ عن إعادةِ الحلفِ؛ أو لتسويةِ حالِ الحلفِ بعدمها إهمالاً لقيمتِها، أو أنّه لا جدوى للقسمِ على هذه الطّاعةِ، أو النّهيُ على حقيقته أي لا تُقسموا على الخرُوج فلمّا تُكلّفُوا به ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ فإنّ طاعتكم معرُوفةٌ بين النّاسِ بأنّها لا تتجاوزُ حدَّ الادّعاء، وفي الكلامِ تقديرُ: طاعتُكم طاعةٌ معرُوفةٌ، أو الواجبُ عليكم طاعةٌ معروفةٌ لا أيمانٌ كاذبةٌ، وفي "معرُوفة" تعبيرٌ بالنّتيجةِ عن سببِها أي و اقعةٌ حتّى تُعرف ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إنَّ الله مطّلعٌ على أعمالِكم، وأكّد الكلام لأنّ المخاطبينَ عن مضمونه غافلُون، واستعمل صيغةَ "فعيل" للدّلالةِ على المبالغة.

ثمّ يأمرُ الله رسُوله ﷺ بدعاءِ جميعِ الذينَ ادّعوا الإيمان إلى الطّاعةِ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ قل لهم أيّها الرّسُول ﷺ أطيعُوا الله وأخلصُوا له الأعمال وأطيعُوا رسُوله ﷺ بالاستجابةِ لأمرِه، وكرّر "قل" اهتمامًا بتينِك الطّاعتين، ولم يقل لهم: أطيعُوني ليبيّن لهم بأنّه إنّما يُطاع لكونه رسُولاً ليسَ إلاَّ؛ وطاعتُه طاعةٌ لله؛ هذا مع ما في تكريرِ الأمرِ بالطّاعةِ من التّأكيدِ والتّنويهِ إلى استقلالِ الطّاعةِ الأولى عن الثّانية.

وينتهي القول الموجَّه للرّسُول ﷺ ويخاطب الله الناس عموما أو المنافقين خصوصا بما تضمّن تهديدًا بقولِه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن تُعرضُوا عن الطّاعةِ، والفعلُ مضارعٌ بحذفِ تاءٍ وأصلُه: تتولّوا، واستعمل فاء التّعقيبِ مع حذفِ متعلَّقِ "تولّوا" لإفادة معنى: ليس عليك بعد تولّيهم إلاّ استحضار أنَّك مبلّغٌ فتسلَّ ولا تغتمَّ بهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ فإنّما على الرّسُول البلاغُ الذي كُلّف به أي ليس عليهِ مُحاسبتُكم ولا معاقبتُكم، وعبّر بالحملِ على سبيلِ الاستعارةِ تنبيهًا إلى مسؤوليّة التّبليغ العظيمةِ وكأنّها أحمالٌ فوق الظّهر ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ وعليكُم ما كلّفتُموهُ من اتّباعِ الوحي، أو ما حُمّلتُم من الأوزارِ بسببِ التّولّي؛ وعلى هذا ففي التّعبير مشاكلة فإنّ الرّسُول حمّل التّبليغ وهم حمّلُوا الأوزار.

وقدّم التّهديد على التّولّي ردعًا لمن سبقَ بيانُ شأنه في الإعراض ثمّ جاء مقابلةً بالتّرغيبِ: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وإن تُطيعُوا رسُولكم مُحمّدا ﷺ فيما يأمرُكم به تحظوا بمنهجِ الهدايةِ الصّحيح

وتفُوزوا، ثمّ يبيّنُ المبهم من قولِه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ فيقُول: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وليس على الرّسُول أمرُ هدايتِكم إذا لم تجتهدُوا في طلبها و إنّما عليهِ أن يجتهدَ في التّبليغ لكم، وما دامَ أنّهُ سبقَ السّياق بهذا فيحسُن أن يعمَّ المعنى هنا؛ كأنّه قال: هكذا شأنُ أيّ رسُولٍ في التّبليغ.

٢٧. الوعدُ بالتّمكين لمن حافظَ على الدّين والتّهوينُ من الكافرين

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٥٧)﴾.

وبعد عرضِ جملةٍ من الآدابِ الحضاريّةِ إلى أن انتهى بوجوبِ طاعةِ الله والرّسُول يأتي إلى نتيجة التزام ذلك وهي الاستخلافُ والتّمكينُ في الأرضِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أعطى الله وعدًا للذين التقُّوا منكم بإخلاصٍ حول رايةِ الإيمانِ واجتهدُوا في الأعمالِ المرضيّة، وقدّم "منكم" تعجيلاً بالامتنانِ وبعث المسرّةِ في قلوبهم،[25] وشملتِ الآيةُ العموم الغالب فلا يتخلّفُ الوعدُ بسببِ تقصيرٍ من البعضِ، والآيةُ سطّرت مجموعةً من أسبابِ النّهوضِ الحضاريّ أوّلُها: التّوفيقُ بينَ الجهدِ الرّوحيّ الخالص والعملِ الميدانيّ الصّالح ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وعدَهم بالاستخلافِ في الأرضِ، وذلك بجعلِ كلّ منهم يقوم بأمرٍ ارتضاهُ الله له تصلُح بهِ أحوالُ العبادِ؛ وبمجموعِ ذلك يُورثُهم أسبابَ العزّ ويُعطِيهم مقاليدَ التّقدّمِ الحضاريّ فيقووا ويُنصرُوا على أعدائهم؛ كما فعل مع أسلافِهم المؤمنين عبر تاريخِ البشريّةِ كبني إسرائيل بعد هلاكِ فرعون، والمرادُ بالأرضِ ما وسعهم الوصول إليه بلا حدٍّ، والسّينُ والتّاءُ في الفعلِ"ليستخلفنهم" للمبالغةِ، والجملةُ مؤكّدةٌ بقسمٍ مقدّرٍ أي: والله ليستخلفنّهم، كما أنّه أكّد الأفعال الآتية تقريرًا لتنفيذِ الوعدِ ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ و أنّهُ سيُمكّنُ لهم في الأرضِ لإقامةِ دينهم "الإسلام" الذي اختارهُ لهم،

---

[25] وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة؛ كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ﷺ قال: لما قدم رسول الله ﷺ عن أبي بن كعب ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت الآية. المستدرك على الصحيحين، ك: التفسير، ب: تفسير سورة النور، ر: ٣٥١٢، (٤٣٤/٢).

والتّمكينُ جعلُ الشّيءِ مستقرًّا في مكانٍ؛ فهو تمثيلٌ للإسلامِ كأنّهُ صرحٌ مادّيٌ يجدُهُ المؤمنون؛ واستعار هذا لتوسّعِ الدّينِ لجامعِ زوالِ الخوفِ من الاضمحلال بالرّسوخِ أو الانتشارِ، وقدّم "لهم" إظهارًا للامتنانِ، وأضاف الدّين لهم لتشريفِهم به وتشريفِه بهم ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ و أنّهُ سينزعُ عنهم كلَّ أسبابِ الخوفِ التي كانت سببًا لضعفِهم ويجعلهم آمنين؛ وعبّر بهذا لتتعدّدَ المنّةُ إلى منّتينِ، وأضافَ الخوفَ إليهم إشارةً إلى أنّهُ متقرّرٌ لديهم بطولِه أو هوله، وتنكيرُ "أمنًا" لتفخيمِ شأنه مقابلةً بشدّةِ الخوفِ، والآيةُ دلّت على أنّ أوّل مظهرٍ للنّهوضِ الحضاريّ توفّر الأمنِ؛ فبهِ تطمئنُّ النّاسُ فتعملُ وتُبدعُ؛ وبهِ تحفظُ المكاسبُ فتنمو ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ذلك التّمكينُ لأجل أنّهم كانُوا يعبُدون الله وحدهُ لا يُشركُون به أحدًا، وتضمّن هذا ثناءً عليهم وتعليلاً للاستخلافِ، وعبّر بالمضارعِ لإفادةِ أنّ دوامَ تمكينِهم تعلّقَ بدوامِ رفعهم للدّينِ، ولقد صدقَ الله وعدهُ في عهدِ رسُوله ﷺ وبعضِ فتراتِ الإسلامِ الزّاهرةِ فمكّنَ لعبادِه في الأرض وقهرَ أعداءهُم.

وبعدَ البشارةِ يُحذّرُ من الفشلِ والاتّكالِ ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ والذي لا يعرفُ لنعمةِ التّمكينِ قدرهَا، والإشارةُ عائدةٌ إلى كلّ أسبابِ التّمكينِ بدايةً من الإيمان، وهنا تنويهٌ بأعظمِ أسبابِ سُقوطِ الأمم وهو تضييعُ القيمِ الحضاريّةِ التي كانت سببًا للرّفعةِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فأولئكَ هم الخارجون عن هدى الله، والصّيغةُ من بابِ قصرِ الموصوفينَ على الصّفةِ مبالغةً وكأنّهُ لا فاسقَ غيرهم.

ثمَّ يُوصي بالعملِ الذي يتحقّقُ بهِ الموعودُ ويستمرُّ ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ﴾ واجتهدُوا يا أهلَ الإيمانِ في إقامةِ الصّلاةِ كما فرضت وفي أداءِ الزّكاةِ مثلما شُرعت، وذكر العبادتينِ تمثيلاً لأنّهما ركيزتانِ هامّتان في النّهوض الحضاريّ والمرادُ التّوصيةُ بالحفاظ على عمومِ الفرائض ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ واحرصُوا على طاعةِ الرّسُول ﷺ في كُلّ ما يأمرُكم به راجينَ أن يرحمكم الله في الدّنيا بحياةٍ طيّبةٍ وفي الآخرةِ بدرجاتٍ عاليةٍ.

ثمّ يُسلّي الله نبيّهُ ﷺ بأنّ وعدهُ آتٍ مهما تعسّرتِ الأوضاعُ وتكالبَت الأعداءُ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا تظنّنَ بأنَّ أهل الكفر قد ملكوا أمرهم وأعجزوا الله بل الله قادرٌ على إهلاكهم، والخطابُ للرّسُول ﷺ ويشملُ غيرهُ بالتّبع؛ ولعلّهُ خطابُ تثبيتٍ محضٍ فأولو الصّلاح

متيقّنون بقوّةِ الله، وذكر الأرض لاستقصاءِ أحوالِهم فيها في العُدّةِ والعددِ والزّمانِ والمكانِ ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُوَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ومصيرُهم الأبديُّ المحتُوم المشؤوم هو النّارُ الحامية المؤصدةُ، وفي الجملةِ تقديرُ قسم أي: والله لبئس المصيرُ هي.

٢٨. آدابُ استئذانِ الصّغارومن في حُكمهم للدّخول على غيرِهم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِوَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)﴾.

ثمّ يعُود إلى بسطِ بعضِ الآدابِ الإسلاميّةِ التي تُعدُّ جزءًا من لبنةِ البناءِ الحضاريّ، فسيستأنفُ الحديث في آدابِ الاستئذانِ مفصّلاً ومخصّصًا بعض العموم السّابق في السّورةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ يا أهلَ الإيمانِ مرُوا عبيدَكم وأطفالكم بالاستئذانِ قبل الدّخولِ عليكم إلى أماكنِ خلواتِكم، والخطابُ للجنسينِ ووجّههُ للذّكور تغليبًا كعادةِ القرآنِ، والأمرُ للحاضرين المكلّفينَ إيجابًا لهم بأن يأمرُوا غيرهُم بمنعِ الدّخول عليهم؛ أو هو أمرٌ غير مباشرٍ للغائبينَ ولو لم يُكلّفُوا كي ينشأوا على العفاف، و"الحُلم" رُؤيا في المنامِ تُفضي إلى إنزالِ المنيّ؛ وبُلوغه بلوغ عمرٍ تحقّقِه، وقيل: هو بلوغ عمر الحِلمِ وضبط النّفس، وأوردَ "منكم" مقابلةً للأحرارِ بالعبيدِ؛ وليس المقصود بأنَّ البالغينَ غير المسلمينَ مستثنونَ ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِوَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ مرُوهم بالاستئذانِ بالخصوص في الأوقاتِ الثّلاثة الآتيةِ: قبل خروجكم من خلواتِكم لأداءِ صلاةِ الفجروحينَ ترتاحُون في القيلُولةِ وحينَ تخلدون إلى النّومِ بعدَ صلاةِ العشاءِ، فإذا أذنتُم لهم دخلُوا وإن أبيتُم عليهم رجعُوا، وخصَّ الأوقات الثّلاثة لأنّها مظنّةُ نزعِ الثّيابِ وكشفِ الحُجبِ ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ تلك أوقاتُ الكشفِ المعلُومة عندكم، وأعادَ ذكرَ الثّلاثِ فذلكةً للتّربية على تحديدِ أوقاتٍ للعبيدِ والأطفالِ تكونُ معلومةً لديهم بألّا يدخلوا فيها سواء زادت على الثّلاثِ أو نقصت، وسمّى الأوقات بذاتِ العورات مبالغةً، وأصلُ العورة

الخلل والنّقص؛ اشتقّت من العارِ لأنّ كشفَها يورثُ المذمّة ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ ولا بأسَ عليكم ولا على عبيدِكم وأطفالِكم خارجَ تلك الأوقات من الدّخولِ، فالبالغُون إناثًا وذكورًا مماليكُ لكم وأطفالُكم جزءٌ منكم فلا حرجَ عليكم؛ والمماليك وعموم الصّغارِ قد علموا أوقات المنعِ ولا بأسَ عليهم في غيرِها، وعلّلَ هذا التّيسير بقوله: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فالأطفالُ والخدمُ ممّن تحتاجُون إليهم ويحتاجُون إليكم فيدخُلون عليكم أو تدخلُون عليهم، وعبّر بالتّشديدِ مبالغةً أي هم كثيرُو الطّوافِ ممّا يستدعي رفعَ الحرج، وفي الآيةِ إيجازٌ والتّقديرُ: و أنتُم طوّافون عليهم، ولم يذكر استئذانَ المالكينَ لمماليكهم لأنّهم من شأنِهم نداؤُهم أينما كانُوا وقليلٌ دُخولهم عليهم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ كما فصّل الله لكم آداب مخالطةِ الأطفالِ والعبيدِ يُبيّنُ لكم عامّةَ الآياتِ، واستعمل المضارع لتقريرِ الامتنان بدوامِ التّبيينِ؛ وخصّهُ بنا زيادةً في التّشريفِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله أعلمُ بما يشرّعُ وهو صاحبُ الحكمةِ المطلقةِ فيما يُقرّرُ، وجدَّد لفظَ الجلالة؛ كما عبّر عن صفاتِه بصيغةِ المبالغةِ تنويهًا بشأنِه.

ثمَّ يُبيّنُ آدابَ الاستئذانِ للأطفالِ إذا بلغُوا الحُلم ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ وإذا وصلَ أطفالُكم يا معشر المسلمين إلى سنّ البُلوغِ الشّرعيّ فمروهم بالمحافظةِ على أدبِ الاستئذانِ، وذلك في كلّ الأوقاتِ وجوبًا إذا دخلُوا بيوتًا غيرَ بُيوتِهم، ولفظُ "الأطفال" هنا شمل الأحرار وغيرهُم ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يحتملُ هذا الكبار قبلهُم أو أطفالاً مثلهُم ترعرعُوا على هذا الأدبِ أو أشاربه إلى أنّه كان تشريعًا في الأممِ السّابقةِ كما جاء في فرض الصّيام؛ وقد استأذنت الملائكةُ قبل الدّخول على إبراهيم عليه السلام، وعلى كُلٍّ فقد ذكره تلميحًا بأنّ الاستئذان إنّما يرسخُ بالتّربيةِ بالقدوةِ قبل كلّ شيءٍ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ وكما بيّنَ الله لكم آدابَ الاستئذانِ بهذا التّفصيلِ والتّأكيدِ يُبيّن سائر آياتِه، وهذا التّعبيرُ في الحقيقةِ مبالغةٌ في وصفِ البيانِ القرآنيّ بأنّه بلغ حدًّا من الكمالِ لو أريد معه تشبيهُ ببيانٍ آخر لم يصلُح أن يُشبّه إلاَّ بنفسهِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليمٌ بما تصلُحُ بهِ أحوالُ خلقِه حكيمٌ في تشريعِه لهم، وكرّرَ مسألةَ التّبيينِ مقرونةً بهذا الثّناءِ تأكيدًا واهتمامًا بأدبِ الاستئذانِ.

٢٩. رفعُ الحرجِ عن العجائزفي تخفيف الحجابِ

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾.

وبعد فرضِ ضربِ الخُمرِ على النّساءِ وبمناسبةِ ذكرِوضعِ الثّيابِ يعطفُ في الحديث إلى القواعدِ من النّساءِ ليخصّهنّ بأحكامٍ تتلاءمُ معهنّ ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ والنّساءُ العجائز اللاّتي تجاوزنَ مرحلةَ الزّواجِ والرّغبةِ الجنسيّةِ، و"القواعد" جمعُ "قاعد" بلا تاء كحائضٍ؛ وهي المرأةُ التي عجزت لكبرِها عمّا تقوم به عموم النّساءِ من الزّواج والإنجابِ وغيرِذلك؛ والقعودُ هنا مستعملٌ في معنى العجزِ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ فلا حرجَ عليهنَّ في كشفِ شيءٍ من ثيابهن الظاهرة، كَالجِلْبَابِ والرداء الذي تلبسه النساء فوق الخماروالقميص، وفي حكم الجلباب ما يُعرف عند النساء بـ"العباءة" القائمة مقام الجلباب.

أبيح للقواعد ذلك إذا كنَّ غير ظاهراتٍ بزينةٍ، والزينةَ الخِلقيةِ قد انطفأت بالكبرِ وأمّا الزينةُ المصطنعة كالقلادة والفصوص والأصباغ التي توضع على الوجه فإن بقي شيءٌ منها يُورثُ حظًّا من الاشتهاءَ مُنع وضعُ الثّيابِ بسببها ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ وإذا امتنعنَ عنِ الكشفِ على كُلِّ حالٍ فذلك أفضلُ لهنَّ؛ لأنَّ في قلوبِ بعض الرّجالِ نوازع تشتهي ما لا يُشتهى، والسّينُ والتّاءُ للمبالغةِ دعوةً إلى ترجيحِ الاستعفافِ على وضعِ الثّيابِ،[٢٦] ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله يسمعُ قولهنَّ ويعلمُ نو اياهنَّ، وتضمّن هذا تحذيرًا من التّوسّع في الرّخصة، ومن بديعِ التّربيةِ القرآنيّة ربطُ هذه الأحكام بالجانبِ الإيمانيّ فذلك أدعى للمحافظةِ عليها.

[26] ينظر: محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التّفسير، ج: ١٠، ص: ١٤٨.

٣٠. رفعُ الحرجِ عن الضّعفاء و إباحة الأكل من بيُوتِ الأقارب

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾.

وفي خضمِّ هذهِ التشريعاتِ يُنوّهُ بسماحةِ الإسلامِ مع ذوي الأعذارِ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ليس على ذوي الأعذارِ كالأعمى والمختلِّ حركيًّا والمريضِ جسديًّا ما على غيرِهم من الأصحّاء من الأحكامِ في الشّرعِ الإسلاميّ؛ ومن ذلك أن بعض الناس تحرزمن الأكل مع ذوي العاهات وهم العميان والعرجان والمرضي وأهل الزمانة لما قد يترتب عليه من أن يأكلوا ما لا يحل لهم أكله، لأن أصحاب هذه العاهات لا يأكلون كما يأكل الأصحاء كماً وكيفاً، كما أن أصحاب العاهات قد تحرجوا أيضاً من مؤاكلة الأصحاء معهم خوفاً أن يكونوا يتقذرونهم فآلمهم ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية فرفع الحرج عن الجميع الأصحاء وأصحاب العاهات

﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ وليسَ عليكم إثمٌ يا أيّها الذين آمنُوا إذا أكلتُم من رزقٍ وجدتُموهُ في بيوتِكم من غيرِ أن تسألُوا أحدًا عنه؛ أو من رزقٍ لكم آثرتُموهُ لأنفُسكم وكان الأصلُ أن يُشارككم فيه أهل بيتكم، وشملت بيوتهم بيوت أبنائهم وحفدتِهم، وجدّد النّفي بعد العطفِ تأكيدًا لنفي الحرج ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ كما ليسَ عليكم بأسٌ أن تأكلوا بلا إذنٍ من بيوتِ هؤلاءِ الأقاربِ، والأكلُ الذي أبيح هو أكلٌ لم يدعوا إليهِ وكان معرُوضًا لا مختزنًا؛ يقُول القُطب راويًا عن ابن عبّاسٍ: "يأكُلُ ويُؤكِّلُ ولا يحملُ ولا يدّخر"،[٢٧] عند حصول الاطمئنانِ برضا صاحبِ المالِ حيثُ صارَ الأكلُ كالأمرِ المتعارفِ عليهِ، واستشكل الكثيرُ حكمة هذا الإطناب في عدِّ الأقاربِ؛ كما اتّخذهُ بعضُ أعداءِ الإسلامِ مطعنًا في القرآنِ بأنّه يُفصّلُ في أمورٍ لا حاجةَ للتّفصيلِ فيها، وقد غفل هؤلاء

---

[27] محمد بن يوسف أطفيش، **تيسير التّفسير**، ج١٠، ص١٥١.

عن الحكمة العظيمة والآثار الكبيرة المترتبة على ذلك، كإزالة الطبقية وترفع الأغنياء وذوي الوجاهة عن معاملة الضعفاء، وما يترتب عليها أيضا من زرع روح المحبة والتعاون وإزالة الأحقاد والضغائن من المجتمع، وهو أيضا من التّفنّن في الخطاب، فإن البلاغة في الإطناب تارة وفي الإيجاز تارة أخرى، وفي الآية دّعوةٍ إلى صلةِ هؤلاءِ جميعًا من خلالِ تشريعِ إباحةِ الأكلِ من بيوتِهم تتمّةً للآدابِ الأسريّةِ.

فقد رُوي عن عائشةَ المطهّرة أنَّ الصّحابةَ كانُوا يخرُجون إلى الجهادِ فيترُكون بيُوتهم عندَ قاعدينَ يقومون عليها؛ فتحرّجُوا من الأكلِ منها فأنزلَ الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ وجاز لكم أيضا أن تأكلُوا من بيوتٍ كانَت تحتَ تصرّفِكم، وملُك المفاتح كنايةٌ عن ذلك، والمفاتِح مثل المفاتيحِ جمعُ مفتحٍ ومفتاحٍ ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أو من بيوتِ أصدقاء لكم نزلتُم عليهم، وعبّر بالمفردِ لإرادةِ الجنسِ وقيل: في ذلك تلميحٌ إلى قلّةِ الأصدقاء الأوفياء ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ ولا بأسَ عليكم إذا أكلتُم في تلكُم البيوتِ مع أهلِها أو لوحدكم أو بمعنى: وجدتُم أحدًا سبقكم إلى الأكلِ فتُشاركُونه أو تنتظرُونه، وجدّد نفي الجناحِ تأكيدًا؛ والحرجُ والجناحُ مترادفان، وأشتاتًا جمع شتٍّ وهو الجزء، وقيل: كانت عادتُهم ألّا يأكلُوا إلاَّ إذا شارَكهم أحدٌ وإذا لم يجدُوا امتنعُوا عن الأكلِ فتضرّروا والطّعام بينَ أيديهم، وقيل: كانُوا يأكلُون فرادى لئلاَّ يأخذ أحدُهم فوقَ حدِّ سهمه، وربّما امتنعُوا عن مؤاكلةِ الفقيرِ لأنّهُ أولى بالطّعامِ؛ فنزلت الآيةُ معالجةً لكلِّ ذلك.

ولَمّا كانت التّوسعة في إباحةِ الأكلِ من الأقاربِ مظنّة التَّطاول عليهم ذكّرهُم بأدبِ التّسليمِ الذي هو تقريرٌ لحفظِ حُرماتِهم ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ وتُوصون إذا دخلتُم إحدى تلكم البيوتِ أن تلقوا السّلامَ على من وجدتُم فيها، وعدَّ أنفُس أهلِ البيتِ أنفُسًا لهم لعلاقةِ القرابةِ والدّينِ الوطيدةِ كما عدَّ أرزاقهم كأرزاقِهم فأباحَ لهم الأكل منها، وقيل: أراد هنا بيوتًا أخرى كالمساجِد والأماكنِ العامّةِ كما سبقَ في السّورةِ الحديثُ عن البيوت غير المسكونةِ؛ والسّلامُ على أنفُسهم سلامُ بعضٍ على بعضٍ، ولهذا قال بعض أهل العلم إن الداخل إلى بيت لا أحد فيه يؤمر بأن يسلم على نفسه، كأن يقول: سلامٌ علينا وعلى عباد الله الصالحين،روي عن قتادة أنه قال: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ فسلموا تحيّة مباركةً طيّبةً شرعها الله؛ و أقلُّها: "السّلامُ عليكم"، وأصلُ التّحيّة الدّعاءُ بالحياةِ ثمَّ توسّعت في

كلِّ دعاءٍ بالخيرِ، وجعلها من عندِه تشريفًا لها وترغيبًا فيها فإنّ الصّادر منه كلّهُ خيرٌ وبركةٌ، ولأجلِ آثارِها الحميدةِ في النّفوسِ وأجورِها المضاعفةِ وصفت بالبركةِ والطّيبِ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ومثل بيانِ الله لكم لهذهِ الآدابِ بالتّفصيلِ الدّقيقِ يُبيّنُ لكم عامّةَ الآياتِ لعلّكم تُدركون أثرها في تطويرِ نظامِ حياتِكم فتلتزمونها.

٣١. أدبُ المجالِس ومخاطبة الرّسُول ﷺ وثناءُ الله على نفسهِ

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾.

وفي ختامِ السّورةِ يُنوّه إلى أنّ تلكم الآداب لا تنشأ من فراغٍ و إنّما تقومُ بمجالسة أهلِ العلمِ؛ فذكر بعضَ آدابِ المجالسِ تلميحًا لذلك، أو المناسبةُ ذكرُ أدبِ الاستئذانِ للانصرافِ من المجالسِ بعد تفصيل عموم آدابِ الاستئذان للدّخول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ المؤمنون الحقيقيّون هم المصدّقُون بالله ورسُوله تصديقًا يجعلُهم يلتزمون الأحكام التي يُوصون بها، والقصرُ هنا تعريضٌ بأهلِ النّفاقِ الذين لم يحترموا آداب المجالس ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ وإذا جمعهم بالرّسُول ﷺ أمرٌ لمصلحةِ المسلمينَ العامّة لم يترُكوا مجلسهُ إلاَّ بالاستئذانِ المحترم، والتّنكيرُ في "أمرٍ" أفاد عموم الأمرِ من صلاةٍ وتعليمٍ ومشاورةٍ وغيرها، والمعيّةُ أفادت الحضورالمباشروالاستعلاء"على" نبّه إلى أنّهُ حضورٌ متمكنٌّ؛ فمن تحقّق له ذلك فالاستئذانُ في حقّه واجبٌ و انصرافُه بدونه تجرّؤ صريحٌ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إنَّ الذينَ يطلُبون منك الإذنَ بأدبٍ أولئك الذينَ كمل إيمانُهم بالله والرّسُول ﷺ؛ وذلك لأنّهم يحرصُون على ألّا يفُوتهم من أمرِ الدّينِ شيءٌ قد وسعهم أخذُهُ، والتفت بالخطابِ إلى الرّسُول تشريفًا لمقامه، وجدّد مضمون الآيةِ السّابقةِ بتغييرِ الأسلوبِ وتوكيدِ المعنى للاهتمام بشأنِ هذا الاستئذانِ

وتفخيمًا لأمرِ إيمانِهم بالله والرّسُول؛ وليُمهّد لقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فتلطّف بهم أيّها الرّسُول فإنّما يستأذنُونك لأعذارٍ قهرتهُم وقُلوبهم متعلّقةٌ بك، فأذن لمن شئتَ منهم إذا رأيتَ بأنَّ مصلحتهم في الانصرافِ، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنّ المسلم لا يخلُو من مصالح دنيويّةٍ و إنّما اللّبيبُ من أحسن مسايرتها ولم تلهه عن الأهمّ، والآيةُ مثالٌ لتفويضِ المجتهدِ لما يراهُ الأصلح، وآدابُها مأخذٌ صالحٌ للقياسِ على كلّ اجتماعٍ انعقدَ لمصلحةِ الجماعةِ المسلمة ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ واسألِ الله المغفرةَ لهم فإنّما بُعثتَ رحمةً بهم، يقُول الصّابُوني: "فإنّ الاستئذان ولو لعذرٍ قُصورٌ لأنّه تقديمٌ لأمرِ الدّنيا على الدّين"[28]، وأمرهُ ﷺ بالاستغفارِ تقريرٌ لأدبِ ردّ إحسانِهم بالإحسان أي الحضور والاستئذانِ بالاستغفار ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إنَّ الله هو أهلُ المغفرةِ الواسعةِ والرّحمةِ العميمة.

وكان بعضُ الجفاة الو افدينَ على الرّسُول ﷺ يُنادُونه كما يُنادي الواحد منهم صاحبهُ: يا مُحمّد؛ فنهاهُم الله عن ذلك؛ وأوردَ هذا هنا مناسبةً للاستئذانِ الذي قد ينادون فيه الرّسُول ﷺ ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ لا تُنادُوا رسولكم كما يُنادي الواحدُ منكم غيرهُ، و"بينكم" أي في كلامكم، والتفتَ عن الغيبة"يستأذنوه" إلى الخطابِ"لا تجعلوا" حثًّا على الاجتناب، فإنّما أمروا بندائه: يا رسُول الله؛ ويا نبيَّ الله، ومن حكمةِ هذا زيادةً على التّشريفِ ألاَّ تعلو أصواتُهم بالنّداءِ فإنَّ لفظي الرّسالةِ والنّبوءة لا يُسعفانِ لذلك؛ وإذا كان نداؤُهم بأدبٍ لم يكن إلاَّ لأمرٍ مهمٍّ يليقُ مع مقامه ﷺ، وفُسّر دعاء الرّسُول أيضًا بأنّه إذا دعى أصحابه فعليهم أن يأخذوها بحزمٍ كما إذا انصرفُوا عنه لم يترُكوهُ إلاَّ بإذنٍ، ومهّد بهذا النّهيِ تعريضًا بالمنافقينَ الذين قال فيهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ والله قد علمَ الذينَ يتسلّلُون من مجلِسه ﷺ خفيةً يستُرُ بعضُهم بعضًا، وبفعلِهم هذا صحَّ أن يُنعتُوا بالمنافقين، و"قد" لتحقيق العلمِ بخبرِ تسلّلِهم، والتّسلّل تكلّف الانسلال، واللّواذ الاستتار؛ من اللّوذِ يُقال: لاذَ بهِ إذا استتر به طلبًا للحمايةِ والخلاص، وفي الآيةِ ما دلَّ على أنّ مجالسه ﷺ كانت تكتظُّ بالمؤمنينَ حتّى صار المتسلّلُون يخفون ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ فليحترِز الذين يُخالفُون التّعاليم الشّرعيّة بعد بيانِها ومنها آدابُ الاستئذانِ السّابقةِ، وحذف مفعول "يخالفُون" لأنّهُ معلومٌ من المقام، وتضمّنت المخالفةُ معنى الإعراضِ والمباعدةِ فعدّيتِ بحرف "عن"،

[28] مُحمد علي الصابوني: صفوةُ التّفاسير، ج: ٢، ص: ٣٢١.

وهاءُ "أمرِه" يجوزُ عودُهُ إلى الله أو إلى الرّسُول، وهذا التّهديدُ وإن وردَ في سياقِ تضييعِ الأدبِ معه ﷺ فهو شاملٌ لكلِّ مخالفةٍ ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فليحذرُوا ضرًّا دنيويًّا يلحقُهم أو عذابًا أليمًا يُصيبُهم في الدّنيا بالاستئصال وفي الآخرةِ بالنّارِ، و"أو" لمنعِ سقوطِ كلّ ذلك عنهم وليس لمنعِ اجتماعِ الفتنةِ والعذابِ عليهم، وجدّد فعل الإصابةِ إمعانًا في التّخويفِ.

ثمّ يذيّلُ لمجموعِ ما تضمّنته السّورة بهذه الخاتمةِ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وتوظيف حرفِ التّنبيهِ هنا تخلّص بارعٌ لإنهاءِ الكلام؛ وفيهِ حثٌّ على الاهتمام بما بعدهُ أي: ألاَ فلتعلمُوا بأنَّ الله مالكٌ لكلِّ ما في السّماواتِ والأرضِ ومتصرّفٌ فيه، فلهُ التّشريعُ كلّهُ وإليهِ يرجعُ الأمرُ كلّهُ ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وقد علِم ما في نُفوسكم من الإخلاص أو النّفاقِ، والاستعلاء"على" مستعارٌ لمعنى بقائهم وتمكّنهم فيه، و"قد" كسابقتِها للتّحقيقِ ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ وسيأتي اليوم الذي تُرجعُون فيهِ إلى الله ليُحاسبكم على كلِّ أعمالِكم، وهنا التفاتٌ من الخطابِ"أنتم" إلى الغيبة"يرجعون" تفنّنًا في تذكيرِ المنافقين بيومِ البعثِ، والشيء الذي جعلهم يستترُون بأعمالِهم هو ظنّهم بأنّ الله لم يعلم ما هم عليه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والله قد اطّلع على جميع أعمالِكم، وهذا تذييلٌ لقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾.

تمّ بحمد الله تعالى تفسيرُ سورةِ النّور وتليها سُورةُ الفرقان.

سورة الفرقان

سورةُ الفرقانِ مكّيّةٌ كلّها على المشهورِ، وهي السّورةُ الثّانيةُ والأربعُون في ترتيبِ النّزولِ، نزلت بعد سورةِ يس وقبل سورةِ فاطرٍ، وبها سبعٌ وسبعُون آيةً، وسُمّيت باسمِ "الفرقان" لافتتاحها به؛ ولما تضمّنتهُ من مجادلات للكفّارِ فرّق الله بها بينَ الحقّ والباطِل، وقد عُرفت بهذا الاسمِ منذ عهدِ الرّسُول ﷺ وعلى مسمعٍ منهُ،[29] ومن شرفِها أنّها حملت دون غيرها اسمًا من أسماء القرآنِ وهي جزءٌ منه.

افتتحتِ السّورة بتعظيمِ مُنزلِ القرآنِ، ثمّ تفرّغت لإثباتِ صدقِ دعوةِ الرّسُول ﷺ وبيانِ شأنِها وشأنِه ودحضِ أباطيلِ المشركين المتنوّعةِ في شخصِه ورسالتِه و إقامةِ الحججِ عليها واحدةً تلو الأخرى، وقد تخلّل ذلك تذكيرٌ بالخالقِ العظيم، واهتمامٌ بقضيّتي البعثِ والجزاءِ الأخرويّ، كما تضمّنتِ السّورةُ قصص بعضِ الأنبياءِ مع أقوامهم على سبيلِ الإجمالِ وهم: قوم موسى وهارُون وقوم نوحٍ وعاد وثمود وأصحاب الرّسّ وقوم لوطٍ، وختمت بجوامع خصالِ عبادِ الرّحمن وما أعدَّ لهم من ثوابٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٢. رسالةُ القرآنِ العالميّة ومعارضةُ الكفّارِ لها

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦)﴾.

---

[29] سمع هشام بن حكيم رضي الله عنه دلّ على هذا الحديث المشهور في نزول القرآن على سبعة أحرُف، فعن أبي عبيدة قال: بلغني أن عمر بن الخطاب فقلت: يا رسول الله: إني ﷺ أقرأنيها، فلببته بردائي، فجئت به رسول الله ﷺيقرأ سَورة الفُرقان على غير قراءته هو. قال عمر: وكان رسول الله سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها ... رواه الربيع، ب: ذكر القرآن، ر: ١٤، (١٦/١).

﴿تَبَارَكَ﴾ ثناءٌ وتعظيمٌ لله بأنّهُ علا فوق خلقه قدرًا وفضلاً بمناسبةِ ذكرِ منّةِ إنزالِ الفرقان العظيمةِ، وصيغتُه مبالغةٌ من التّفاعلِ الذي يقعُ بينَ اثنينِ، وهو من البركة أي كثرة الخيرِ؛ يُقالُ: تباركَ عليهِ إذا فاقهُ في شيءٍ، والافتتاحُ به من مبتكراتِ القرآنِ فلم يُسمع مثلُه في كلامِ الفصحاء، ومن بديعِ ما يُلاحظُ أنّ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾ تكرّرفي السّورةِ ثلاثًا وذلك في خضمِّ الأركانِ التي نزلت من أجلِها؛ في إثباتِ صدقِ القرآنِ وفي تقريرِ البعثِ والجزاء وفي تأكيدِ وحدانيّة الله ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ الله الذي نزّل الكتاب المفرّق بين الحقِّ الباطلِ على رسُوله محمّد ﷺ، والفرقان علمٌ بالغلبةِ على القرآن، وجاء بهذا الاسم هنا وعبّر بالتّنزيلِ مضعّفًا تنويهًا بإرادته العظيمةِ في إنزالِ كتابٍ ينزعُ بهِ بقايا الباطلِ ليُثبت الحقّ، واختار تسميته ﷺ بعبده تشريفًا؛ فإنّ عباد الله محظوظون بتأييدِه وخاصّةً في إقامةِ دينِه؛ كما تضمّنَ تمهيدًا للرّدِّ على الذين يعتقدُون بأنّ الرّسالة لا تكونُ في ذواتٍ بشريّةٍ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ لأجلِ أن يقوم ﷺ بكتابه منذرًا من عذابِ الله جميع الإنس والجنّ مسطّرًا منهجًا يشملُهم بلا استثناءٍ زمانيّ أو مكانيّ، واختار الإنذار هنا لأنّ الرّسل شأنهم أن يُبعثُوا فيمن انغمسُوا في الضّلال؛ فالإنذارُ أليقُ بهم ليستفيقُوا، ومن براعةِ الاستهلالِ الافتتاح بهذهِ الآيةِ فإنّ السّورة نزلت في عُمومها لهذا الغرض.

ثمّ يذكرالله عظمته كي يعرفه العالمون فيُقبلوا على فرقانه الذي نزّله ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو الله الذي ملك السّماواتِ والأرض وما فيهنّ من مخلُوقاتٍ إيجادًا وتعميرًا وزيادةً و إفناءً، وقدّم "له" لحصرِ الملك في الله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وليس لله ولدٌ كما ادّعتِ اليهود والنّصارى فكلُّ شيءٍ ملكٌ له؛ و اتّخاذ المالكِ الحكيمِ لما لا حاجة له بهِ عبثٌ يُنزّهُ الله عنه، وعبّر بهذا لإفادةِ معنى: لو رضيَ لنفسه ولدًا لجعله ولم ينتظركم حتّى تتّخذوهُ له، وبعدَ أن أثبت الملك لنفسهِ نفى أنّهُ شاركه فيهِ أحدٌ؛ لأنّ الاشتراك في الملكِ يُبطلُ حقيقةَ الملكيّة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وليس لهُ أيّ شريكٍ آخر يُنازعه سلطانه أو يُقاسمه، كما يظنّ عبّاد الأوثان عبر الأزمان ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ وهو الذي خلقَ جميع ما في الوجودِ حتّى من زعمتُموه ولدًا وجعلهُ في نظامٍ دقيقٍ يحيا ويموتُ عليهِ، وجاء بالمفعولِ المطلقِ"تقديرا" تأكيدًا لكمالِ التّقدير، وتضمّن هذا النّظم الموجز غايةَ الثّناء والكبرياء؛

ابتدأهُ واختتمه بصفتينِ معلومتينِ عند المخاطبينَ ووسّطَهما بمسألةِ اتّخاذِ الولدِ والشّركاءِ لبيانِ بُطلانها بما يتقرّرُ من استدلالاتٍ من المعلُومِ لديهم.

وبعد ذلك الثّناءِ يحكي حالة المشركين العجيبة ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ومع كلّ البراهينِ على وحدانيّةِ الله قد اتّخذوا آلهةً غير الله يعبُدونها من الأصنامِ والملائكةِ والإنس وغيرِهم؛ وظهر من المقامِ أنّهم المشركونَ وإن لم يجرِ لهم ذكرٌ، ثمّ يذمُّ آلهتهم بأربعةِ أشياءَ تُعدُّ أضدادًا للصّفاتِ التي قد أثبتها لنفسه من قبل: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ اتّخذُوها آلهةً وهي مخلُوقةٌ كما خُلِقُوا ولا تقوى على خلقِ شيءٍ، والخلقُ الإيجادُ من عدمٍ ويحتمل هنا التّصوير والنّحت، وتنكيرُ "شيئا" للتّحقيرِ أي: فكيفَ بعظيمِ الأشياء؟ وعبّر بالمضارع في الفعلينِ لاستقصاءِ الأزمنةِ الآتيةِ بمدلُولهما بعد أن تقرّر في الماضي، وبين الفعلينِ جناسٌ ناقصٌ وطباق سلب ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا تملكُ آلهتُهم لنفسها دفعَ ضرٍّ مهما حقُر ولا جلبَ نفعٍ مهما صغُر، والآيةُ وردت بإيجازٍ كما ترى وليست على ظاهرِها لأنَّ العادة في الضّرّ ألا يستجلبه أحد لنفسه، وقد جرت مجرى المثلِ لبيانِ عدمِ التّحكّم في الأحوالِ؛ فتقديمُ الضّرّ أو العكس ما هو إلاَّ تفنّنٌ، فإذا كانت آلهتُهم عن نفعِ نفسها أو دفعِ الضّرّ عنها عاجزة فهيَ لنفعِ غيرِها أو دفعِ الضّرّ عنه أعجز، كما أنّها إذا كانت عن النّفعِ ودفعِ الضّرّ عاجزة فهي عن الإماتةِ والإحياءِ أعجز ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ وليس بوسعِ آلهتهم إماتة حيٍّ ولا إحياء ميّتٍ ولا بعثٌ من القُبورِ بعد فناءِ الدّنيا؛ وكلُّ ذلك لله العظيمِ وحدهُ فكيف إذا يعبدونها ويتركون عبادته؟ والتّعبيرُ بالملكِ في الموضعينِ مستعارٌ لمعنى القدرةِ، والنّشر والنّشور فتحُ الشّيءِ المطويّ سمّي به البعثُ لأنّهُ فتحٌ عن القبُورِ، ونُكتةُ نفيِ البعث عن آلِهتهم بطريقِ إقحامِه هنا إثباتُه لهم.

ثمّ يُبيّنُ بأنّ المشركين كفرُوا بالقرآن كما كفرُوا بالله؛ فقد ادّعوا أنّهُ كذبٌ و أنّه من حكاياتِ الأوّلين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ زعم الذينَ كفرُوا بأنّ القرآن الذي جاء به الرّسُول ﷺ لا يكونُ إلاَّ كذبًا اختلقه من عندِ نفسهِ، وذكرهُم بالكفرِ إيماءً بأنّه هو السّبب في مقولتِهم هذهِ وما بعدها، ونسبها إلى الكلِّ مع أنَّها للبعضِ لأنّهم في قبُولِها مشتركُون، والإفك الكذب العظيم، واستعمالُ الإشارةِ "هذا" دون ذكرِ المشارِ إليه؛ واختيارُ إشارةِ القريبِ تحقيرٌ على تحقيرٍ ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ ثمّ احتاج إلى مَن يساعدُه ممّن لهم دراية بالكتبِ السّماويةِ لإخراجه على نظمه الذي ترونه،

والقصرُ أفاد أنّه ليس هناك سبيلٌ ثالثٌ غير هذين لمجيءِ القرآنِ ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وقد حصّلوا بذلك الزّعمِ ظلمًا عظيمًا وكذبًا فظيعًا؛ للقرآنِ بتكذيبِه؛ وللرّسُولِ بتسفيهه؛ وللمؤمنين بفتنِهم؛ ولأنفُسهم بحرمانِها من النّورِ، وضميرُ "جاؤوا" شمل الكفّار دون القوم الآخرين، والفعل"جاؤوا" مستعملٌ في الاكتسابِ فالمهتمُّ بالشّيءِ يسيرُ إليه، والتّنكيرُ في "ظُلمًا وزورًا" للتّفخيم، والزّور حقيقتُه الميل سمّي بِه الكذبُ لأنّهُ ميلٌ عن الحقّ.

وعن قولِهم القرآنُ أساطيرُ قال: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ وزعمَ الكفّارُ أنّ ما جاء بهِ مُحمّدٌ ما هو إلاَّ قصص الأوّلين طلب أن تُنقل إليهِ من كُتُبِهم، فقالَ فريقٌ هو: إفكٌ وفريقٌ هو: أساطيرُ؛ أو حكموا بشيءٍ واحدٍ ثمَّ غيّرُوا حُكمهم لظهور اضطرابِه، والأساطيرُ جمعُ أسطورةٍ وهي القصّةُ الغريبةُ، والاكتتابُ تكلّف الكتابةِ؛ وهو مجازٌ لأنّه ﷺ أمّيٌّ، ومن هنا احتاجُوا إلى دفع الشّبهةِ عن ادّعائهم فقالُوا: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فصارت الأساطيرُ بعد طلبِه الاكتتاب تُعرضُ عليهِ كلَّ صباحٍ ومساءٍ ليحفظها فيُكرّرُها عليكم، أي مع كونه أمّيًّا قد وجد هذا السّبيل لنقلِ الأساطيرِ إليكم، وذُكِر طَرَفَا اليومِ مجازًا والمرادُ عموم الوقتِ، أو هما وقتانِ استعانَ بهما لانفرادِه عنِ النّاسِ.

ثمّ يردُّ الله على مزاعمهم الباطلةِ آمرًا الرّسُول ﷺ بأن يُدافع على الوحيِ الذي تشرّفَ به ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنّما أُنزل القرآنُ إليَّ من عندِ الإله الذي قد علم جميعَ ما خفيَ في السّماواتِ والأرضِ، والمرادُ قد أنزله بعلمه لما تصلُح به حياةُ العباد كافّة، واشتمالُه على آثارِ علمِ الله يحتاجُ منكم إلى طولِ تأمّلٍ لاستنباطِ ما أودعهُ الله فيهِ، وفي هذا كذلك تلويحٌ بأنّهُ مطّلعٌ على رسُوله فيما يُبلّغُ عنه ومطّلعٌ على طعنِكم وعنادكم ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وإنّ الله لم يزل غفُورًا لمن تاب منكم رحيما به، وتأكيدُ المغفرةِ والرّحمةِ لمن لم تحصل منهُ بوادرُهما بعدُ تضمّن تلطّفًا في دعوتِهم، ولعلَّ عالم السّرِّ قد رأى بحكمته ألاّ يُعاجلهم بالعقوبة مع فظيع إنكارِهم.

٣٣. طعنُ الكفّارِ في شخص مُحمّدٍ ﷺ وتثبيتُ الله له

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ

كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُوَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠)﴾.

وبعد حكايةِ شركِ المشركين وزعمِهم الباطل في القرآن يقصُّ زعمهم في الرّسُول ﷺ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ استغرب المشركون: لماذا يكونُ مُحمّدٌ المدّعي للرّسالةِ يعيشُ حياةً مثل حياتنا؟ وذكروا الأكل إشارةً إلى الخصائص الشّخصيّةِ والمشي في الأسواق تنبيهًا إلى الخصائص القوميّة، والاستفهام تعجّبيٌّ، وعبّرُوا باسم الإشارةِ إمعانًا في تمييزِ الرّسُول كي يكتمل التّعجّب منه، واستعملُوا الاستفهام وإشارةَ القريبِ وذكرُوهُ بالرّسالةِ تهكّمًا به واستهزاءً، وفي الآية تلميحٌ إلى أنّ الإسلام لا يدعو إلى مفارقة الحياةِ العامّةِ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ هلاَّ أنزل الله عليهِ مَلَكًا يُصاحبُه في مهمّتِه الدّعويّة، وذِكرُهم الإنذارهنا شاهدٌ على أنّ الرّسُول ﷺ قد سار وفق الخطى التي سُطّرت له في قوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ هذا ولأنَّ إنذارهُ هو الذي أشعل نيران حقدِهم عليهِ فلم يفكّرُوا إلاّ فيه ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أو تُرى عليهِ آثار الغنى والكرم بكنزعظيمٍ يُلقى بين يديه أو بُستانٍ باهرٍ بثمارِه يأكل منه، ومرادُهم بذلك أن يتميّز بشيءٍ من الملك فلا يكتسبُ من الأسواقِ كبقيّة النّاس؛ ويختصَّ بتنعّمٍ لا يحظى به سائرُ النّاس، والإلقاء مستعارٌ لمعنى الإعطاء، والتّحضيض بهذه الأمورِ الثّلاثةِ واردٌ للتّعجيز؛ فهم يطالبُون بما يتخيّلُونه غريبًا دون أن يُعلم وجهُ ما يُعجزون به أو سبب تحديدِه.

وحينَ أبى الرّسُول ﷺ أن يُجيبهم في شيءٍ من مطالبِهم كما أراد الله؛ اتّهموهُ في شخصِه طعنًا فيهِ كي يبتعدَ النّاسُ عنه ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ وقال الكفّار إن أطعتُم مُحمّدًا فلا تكونون اتّبعتُم إلاَّ رجُلاً قد مسّهُ السّحر فأذهب سلامة تفكيره ومنطقه، أو خطابُهم موجّهٌ لأتباعِه المؤمنين خاصّةً، والقائلون أفرادٌ ونسب القول إلى الكلِّ لأنّهم عنه راضون، وذكرَهم بعنوانِ الظّلمِ ذمّا لهم على اتّهام أشرفِ الخلقِ بأشنع الوصف.

ثمّ يُسلّي الله رسُوله ﷺ ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ تأمّل إلى حالِهم العجيبةِ كيفَ أنّهم وصفُوكَ بما لا يليقُ بمقامك الشّريفِ فقالُوا تارةً كاذبٌ وتارةً ساحر وغير ذلك؛ فصارُوا بذلك الاضطرابِ في الحكم عليك أهل ضلالٍ صريحٍ، واستعار النّظر للأمرِ الذي من شأنه أن يُعلم تشبيهًا له

بالشّيءِ المنظورِ إليهِ لشدّةِ ظهورِه، وعدَّ قدحَهم فيهِ بمنزلةِ الأمثالِ لجامعِ الغرابةِ الحاصلةِ من كُلٍّ؛ وللمبالغة في بيانِ قدحِهم بأنّهُ بلغَ درجةَ المثلِ المضروب في شيُوعه ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فهم في غيّهم يتخبّطون لا يجدُون طريقًا للخرُوج منه، أو الوقفُ على الأمثالِ بمعنى: عجزوا عن أن يجدُوا سبيلاً لإبطالِ دعوتك.

ويُذكّرُ الله رسُوله ﷺ بأنّه معهُ مؤيّدًا ونصيرًا ولا يُعجزُه أن يمدّهُ بكلِّ ما طلب قومه لكن حكمته العظيمة أبت ذلك ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ عظُم شأنُ الإلهِ الذي لو شاء أجرى على يديك من المعجزاتِ الباهراتِ أكثر ممّا تخيّلُوهُ أنّه منتهى الإعجازِ، و إيرادُ هذا الثّناءِ بعد تعجيبِه ﷺ من حال الكفّارِ من بديعِ التّخلّصِ من حكايةِ أقوالِهم إلى مخاطبةِ الرّسُول ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ فيجعلُ لكَ في الحياةِ العاجلة جنّاتٍ كثيرةً تسير تحت أشجارِها الأنهارُ البهيجةُ ويهبُ لك فيها قصورًا عظيمةً، طلبُوا كنزًا وجنّةً و اقتصرُوا على الأكلِ منها؛ فبيّنَ أنّه يستطيعُ أن يهب جنّاتٍ لهُ إقامةٌ فيها تُغنيهِ عن كلِّ نعيمٍ سواها، وحمل بعضٌ الآية على الوعدِ بالجزاءِ الأخرويّ وأوّلُوا المشيئة بما تقتضيه العظمة الإلهيّة من التّفضّل وعدم الإلزام، والحاصل أنه بيّن لهم بأنّه ليس من أهلِ التّرفِ الدّنيويّ.

٣٤. عاقبةُ التّكذيب وحالُ الكافرينَ يوم القيامةِ مقابلةً بالمتّقين

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)﴾.

وبعد أن بيّن الله أقاويل الكفّار التي تبعثُ على السّؤالِ عمّا جرّأهم عليها؛ أضرب عنها مثبتًا حقيقةَ ما جعلهم يصرّون على غيّهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ في حقيقةِ الأمرِ لم يكن ما صدر من الكفّارِ من أقاويل إلاَّ لأنّهم أنكرُوا البعث، والسّاعة علمٌ على أحداث فناءِ الدّنيا إلى بعثِ النّاسِ؛ سمّيت باسمِ مبدئها أو للإشارة إلى سرعةِ انقضائها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وقد هيّأ الله للذين كذّبوا بتلك الحياةِ الأخرويّةِ عذابَ النّارِ الذي يشتعلُ بأجسادِهم، والجملةُ اعتراضيّةٌ سيقت لتوعّدهم ومقابلةِ ما أُعدّ لهم بما أُعدَّ للرّسُول ﷺ من الخيرِ، وعبّربنونِ العظمةِ إيذانا بتمكّنِه من إيجادِ العذابِ و إيقاعه عليهم، ولم يقل: وأعتدنا للمكذّبين بها؛ ووظّف الصّلة وذكر السّاعة ليشنّعهم مفخّمًا شأن السّاعة.

ثمّ يتفرّغُ لوصفِ عذابِهم تحقيقًا لمبدأ الإنذارِ الذي نزّل من أجله الفرقان ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إذا قابلوا النّار من مسافةٍ بعيدة وقابلتهم، والنّارُلم تُذكرو إنّما عُلمت من المقامِ لَمّا عبّربالفعلِ المؤنّث"رأتهم"، وهي لا تنظُرو إنّما المراد تخويفُهم بشدّة المقابلة الأولى لها، ويُحتملُ أنّ لها هيئة نظرٍ الله أعلمُ بها فأحوالُ تلك الدّارِليست كهذه، وَذكَر البُعد مبالغةً في التّخويفِ لأنّ في توقّع الأمرِ المخيفِ مشقّة لا تُحتمل ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ سمعُوا للنّارِما يدلُّ على توعّدها لهم، و"لها" بمعنى: منها، والتّغيّظ الغليانُ والغضب الدّاخليّ؛ وصياغتُه من التّفعّل للمبالغةِ، والزّفير خروج النَّفَس ويتحقّقُ مع التّغيّظ أكثر، والتّنكيرُ في اللّفظينِ للتّفخيمِ، وسماعُهم و اقعٌ على الحالينِ وهو مناسبٌ للبُعدِ أو يُقدّرُ: رأوا تغيّظًا وسمعوا زفيرًا، وعلى كلٍّ فقد استعارحال الغضبانِ المتوعّدِ للنّارِالتي تنتظرُهم ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ﴾ وإذا قُذفُوا في مكانٍ ضيّقٍ من النّارِوهم مقيّدون بالسّلاسلِ مع بعضِهم أو مع أنفُسهم كالأيدي بالأرجل، والإلقاءُ كنايةٌ عن الإهانةِ، والمقرّنُ المربُوط؛ والتّشديدُ في الضّيّقِ والمقرّن مبالغةٌ في وصفِ الضّيقِ والقَرْنِ، وحصل لهم بهذا ضيقٌ بالسّلاسلِ وضيقٌ بالمكانِ -سلّمنا الله- لأنّه إنّما يُسلسل مَن كان في متّسعٍ ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ تيقّنُوا هلاكهم فصارُوا يدعونه: و اثبوراهُ؛ يا حسرتنَا؛ ونحو ذلك، والثّبُورالهلاك، ودُعاؤُهم للثّبورِكنايةٌ عن شدّةِ التّحسّرِ، أوهو طلبٌ للموتةِ القاضيةِ لو وجدُوها؛ لأنّ الو اقع في الشّدّةِ يتمنّى ما هو أشدّ منها ليقضي عليها، و"هنالك" إشارةٌ تحقيرٍكشفت عن فظيعِ حالِهم وهم يستغيثُون بأعلى أصواتِهم من مكانٍ ضيّقٍ مقرّنين. ثمّ يعلّقُ

الله على موقِفهم من العذابِ: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لا ترجُوا في هذا العذابِ المخزي هلاكًا واحدًا واطلبُوا هلاكًا بعد آخر لأنّ العذاب طويلٌ لا نهاية له، وما دام الدّعاء الواحد لا ينفعُهم صارَ أمرهم بتجديدِه محمولاً على التّهكّمِ بهم وتأييسِهم من إجابةِ دُعائهم، وذكر الزّمان تنبيهًا إلى نعمةِ الأعمارِ التي ضيّعُوها وكان الدّعاء الخالص -ولو قلّ- نافعًا فيها.

ويأمرُ الله رسُوله ﷺ أن يبسُط لقومه مقارنةً بين حالِ هؤلاءِ وحال الفائزين بجنّةِ الخلدِ ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ قل لهم: أذلك التّخويفُ بالنّارِ والسّعيرُ وما فيهِ من ضيق قرنٍ ودعاءٍ بالثّبورِ؛ خيرٌ؟ ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أم جنّةُ التّنعّمِ الأبديّ التي وعد الله المتّقين بأن يدخُلوها؟ والاستفهامُ تقريعيٌّ تهكّميٌّ؛ فالنّارُ شرٌّ كلُّها فضلاً عن كونها تنازعُ الجنّة خيريّتها، وإذا اعتبرناهُ خطابًا لأهلِ الإيمانِ فالاستفهامُ لبعثِ التّفكّرِ في مآلِ المشركين الوخيمِ مقابلةً بما يعدُهم الله به ليتقوّوا على الصّبرِ في دعوتهم، والتّقوى صفةٌ تعكسُ مقصد خلقِ الإنسانِ للخضوعِ لله؛ وتجمعُ لُباب الصّفاتِ الحميدة؛ فناسبت بذلك أن تكون مفتاح الجنّةِ ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ قد جعلت في علمِ الله جزاءً لهم ودارًا للإقامةِ الأبديّةِ الهنيئة المضمونةِ، وليست كوعدِ بشرٍ قد يصدُق في وعدِه وقد تحول العوارض دونه فلا يُنجزُه، وأوردَ "لَهم" تنبيهًا على الاستحقاقِ، والجنّةُ تستحقُّ بالعملِ ثمَّ يكون دخولُها والخلود فيها والارتقاء في نعيمها بفضلِ الله ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾ يجدُون فيها ما يُريدُون من النّعيمِ لا يرجون خرُوجًا منها ولا يُخرجون، وقدّم "لَهم" تعجيلًا بالمنّةِ، كما قدّم "فيها" على متعلَّقِه"يشاءون" اهتمامًا بحياة الجنّةِ، وداخلُو الجنّةِ لا يشاؤون إلاّ طيّبًا لأنّهم قد اختيرُوا بتقواهُم ليدخلُوها، ونسب الخلد قبلاً إلى الجنّةِ وهنا إلى داخليها تقريرًا بأنّها باقيةٌ لهم كما يبقون لها ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ وقد تقرّر في حُكمِ الله أنّ جزاءهُ حقٌّ مضمونٌ؛ وللنّاسِ أن يسألُوا الله عنهُ، وتضمّن "وعدًا" معنى: حقًّا، ومن ذلك: ﴿رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] وفي هذا مبالغةٌ في تحقيقِ الوعدِ وليس فيهِ معنى إيجاب شيءٍ على الله.

وبعد أن حكى ما كان من شركِ المشركين في الدّنيا يُبيّنُ ما آلت إليه عاقبتُهم بسببه ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ واذكر أيّها الرّسُول ﷺ اليوم الذي نجمعُ فيهِ كلّ المشركين بشتّى معبُوداتِهم التي اتّخذُوها آلهةً من دونِ الله، وشملت "ما" العقلاء كعيسى عليه السلام والملائكة بدليلِ الخطابِ الآتي،

ومعنى "من دُون الله" معبودون ليس الله واحدًا منهم، وذلك عينُ الضّلالِ لأنّ الله هو المعبُود وحدهُ وقد عبدوا غيره دونه ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ فيسألُ الله المعبودات وهو أعلمُ بهم: هل أنتُم مَن حمل عبيدي هؤلاءِ على الشّركِ أم اختارُوا عبادتكم بأنفُسهم فضلُّوا؟ والاستفهام تقريريٌّ لإقامةِ الحجّةِ على المشركين بما يصرّحُ به المعبُودون، وفيهِ تضييقٌ على جانبِ المعبودين بحصرِ جوابِهم في أحدِ أمرينِ؛ وبدأَ بنسبِ الإضلالِ إليهم ترجيحًا لحصُولِه، وأضاف المشركين إليهِ"عبادي" مع الإشارةِ إليهم"هؤلاء"؛ لتمييزِهم؛ وليُومئ لهم: كيفَ سمحتُم لأنفُسكم بإضلالِهم وهم عبيدي؟ ثمّ ليومئ للضّالّينَ بتضييعِ شرفِ عُبوديّةِ الله.

حينها يُجيبُ المعبُودون من دون الله متعجّبينَ قائلين: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ نزّهك يالله مِن أن نسمح لأنفُسنا باتّخاذ وليٍّ يُنازعك مقام الألوهيّة؛ فكيفَ نتّخذُهُ لغيرِنا؟ وكيفَ ندّعي أنّنا نحنُ الأولياء مِن دونِك؟ نفوا الأهون ليبطل الأعظم مِن بابِ أولى، وعبّرُوا بنفيِ الكون مبالغةً، و"مِن" الثّانية صلةٌ لتأكيدِ النّفي، والوليّ:المتبُوع؛ لأنّهُ يقومُ على أمورِغيرِه فيُقصدُ طمعًا في منافعه، وهذا جوابٌ عامٌّ من المعبُودين وهو صدقٌ ممّن شأنهم الصدق وكذبٌ من غيرِهم ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ وحقيقةُ ما في الأمرِ أنّك يالله غمرتهم بالنّعم جيلاً بعد جيلٍ فأنساهم التّرف وطول الزّمان واجب الالتزام بالشّرعِ السّماويّ الذي يُذكّرُهم بمقصدِهم الحقيقيّ؛ وبناءً عليهِ اتّبعُوا الأهواء التي سطّرها البشروفق ما تُملي لهم مصالِحُهم وجاء من بعدَهم مقلّدًا فأرداهُم في الضّلالِ، والحاصل تبرّأُوا من إضلالِهم مع إيقاع تبعةِ الضّلال عليهم، وذُكر إفضال الله لبيانِ رحمته بهم ولبيانِ فظاعةِ ضلالِهم النّاشئ عن كُفرانِ فضله ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ فكانُوا نتيجةً لذلك أهل خسارةٍ عظيمةٍ، وبورٌ جمعُ بائرٍ وقيل: مصدرٌ؛ وهو بمعنى: الهلاك، فيكون وصفهُم بذاتِ المصدرِ مبالغةً وأصله "ذوي بورٍ"، وذكرهم بالكونِ"كانوا" وبعنوانِ القومِ إشارةً إلى أنَّ أسباب الهلاك قد تأصّلت فيهم حتّى وكأنّها صارت من خصائصهم.

ثمّ يلتفتُ بالخطابِ إلى الكفّارِ، وفي النّظمِ تقديرُ: إن ادّعيتُم بأنّهم آلهةٌ فقد كذّبُوكم؛ و إنّما آثر الحذف استغراقًا في تمثيلِ المشهدِ وكأنّه يقعُ الآن ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ ولقد أنكر الذين عبدتُموهم ما ادّعيتُموهُ عليهم؛ بأنّهم آلهةٌ وأنّهم أضلّوكم، وفاءُ "فقد" تُسمّى الفصيحة لأنّها أفصحت

مفرجةً عن النّتيجةِ المنتظرةِ، وباءُ "بما" سببيّةٌ أو بمعنى: في ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ فلا تستطيعُون إيجاد خلاصٍ لأنفُسكم، و"صرفًا" أي دفعًا للشّرِّ بحيلتِكم فلا توبة تُقبل منكم ولا فداء، و"نصرًا" أي خلاصًا باستنصارِ غيرِكم إذ لا تنفعُ خُلّةٌ ولا شفاعةٌ.

ثمّ يوجّهُ خطابًا عامًّا للمشركين وغيرهم وهم في الدّنيا للاعتبارِ بمآلِ الضّالّينَ ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ والذي أصرَّ على الشّركِ والعصيانِ منكم سوف نجازيه يوم القيامة بالعذابِ الكبيرِ في هوله وشدّته.

نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

أ	ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه.
ب	عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب.
ج	جميع ما ذكر صحيح.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

أ	الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره.
ب	الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت
ج	لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

أ	الغنائم من الحرب.
ب	ما يتقرب به المسلم إلى الله من النوافل.
ج	قوافل التجارة.

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

أ	عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال.
ب	للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا.
ج	أ و ب صحيحتان .

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

أ	المسلمين والمشركين.
ب	العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم.
ج	المسلمين واليهود.

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

أ	سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون.
ب	سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم.
ج	سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون.

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

أ	كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي.
ب	كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها.
ج	كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي.

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

أ	إيمان الإنسان أو كفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا.
ب	يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب.
ج	التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع.

٩- قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

أ	التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث.
ب	التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس.
ج	أ و ب صحيحتان.

١٠- قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

أ	المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى.
ب	غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك.
ج	"أ" و "ب" .

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى ..... ، وكان ذلك في .....

أ	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة.
ب	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة.
ج	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة.

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو ..... ، وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

أ	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم.
ب	المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.
ج	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله وإفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم.